رواية

الطبعة 3

صاحبة الشأن

مروة جمال

تشكيل للنشر والتوزيع

أعجوبة

صاحبة الرنان

رواية

مروة جمال

أعجوبة

I.S.B.N :978-977-6555-65-5

رقـم الإيـــداع: 29199/ 2017

تصميم الغـلاف : أحمد فرج

الإخراج الداخلي : ضياء فريد

المـديـــر العـــام : سيد شعبان

أعجوبة

إهداء

عزيزي القارئ.. واقعك ما هو إلا جزء من خيال أجاد الوهم حبكته، فأرجوك لا تغضب.

أنت وأنا سنخرج من تلك التجربة بخللٍ مُستَحق.

أنت تقف على حافة بئر من الوهم، ولكن حذاري أن تسقط.

فحينها ستكون مسؤوليتك وحدك!

صاحبة الرنان.

الوهم هو شبح طال انتظاره، كي يخلصنا من همومنا جميعاً.

أعجوبة

أعجوبة

١

ما قبل النهاية

الوقت كان قد قارب على الثامنة صباحاً، استيقظت أميمة كعادتها قبله بساعتين على الأرجح، وأتمت روتينها اليومي على أكمل وجه.

زوجة رائعة أميمة.. لا تتبرم ولا تمل. تشبه الرؤية الصحيحة لأمه حين زارت منزلها لأول مرة لتخبره بثقة امرأة خمسينية جافة:

- *بنت حلال.. هي دي اللي هاتستحمل ظروفك.*

طالما كانت وجيدة أحمد البهي الابنة الكبرى للواء أحمد البهي رحمة الله عليه كما تكاثرت الجرائد حينها، وكما نسيت تلو ذلك وتناسى محافظ الإسكندرية الذي كان يوماً ما صديقه المقرب وضع اسمه على أحد الشوارع الجانبية التي لا يكترث بها أحد. كانت وجيدة امرأة جامدة المشاعر لها وجه خمري مستطيل مع أنف حاد وشفتين رفيعتين لطالما كان الانفعال بهما ثابتاً.. لا يتذكر أحمد أنه لمح ابتسامتها سوى مرات معدودة طيلة حياته وتخبره جدته والدة أبيه أن آخر ابتسامة صادقة لها كانت بعد زفافها بشهر واحد قبل أن يعترف لها أبوها بإشاحة وجه درامية مثيرة للشفقة وملامح مختنقة أنه عاشقاً لامرأة أخرى، ولكنه لن يتزوجها

أعجوبة

أبداً. وقتها ابتسمت له وجيدة ابتسامة ثابتة الانحناء ثم قبلت رأسه بصمت مخيف وقامت بإعداد العشاء وكأن شيئاً لم يكن، وأخبرته بعدها بثلاثة أيام أنها لن تبتسم مجدداً في وجهه أبداً!

وتغلبت عليها الملامح في النهاية فتلاشت ابتسامتها من أمام الجميع.

مهما ادعت النساء القوة فالحزن والابتسامة سيبقيان تحت رعاية الرجُل.

وهكذا قررت وجيدة أحمد البهي أن أميمة رشوان ابنة أحد معارف زوجة أخيها هي العروس المناسبة لظروف المدعو أحمد علي الدين مختار والذي أطلقت عليه أحمد؛ تقديراً لذكرى أبيها الرجل الوحيد في الكون الذي يستحق هذا الثناء. وكبر أحمد ليصبح مثل أبيه موظف حكومي بمبنى إدارة جامعة عين شمس تحت مظلة تعيين أبناء العاملين والواسطة والمحسوبية التي فرقت بين طبقات الشعب، وقامت من أجلها ثورة يوليو.. عيش.. حرية.. وربما كانت اشتراكية!

مُهلة عابثة من الأفكار المشتتة بين ماضيه وحاضره قطعتها حركة شفتيه مع لفافة تبغ رخيصة حادة النكهة وكوب شاي ساخن هو أول ما يعبر جوفه متجاهلاً إفطار أميمة الذي تحضره له يومياً قبل أن ترحل.

يمر جوفه بالمراحل المعتادة من التبغ والشاي والقهوة ويتناول طعامه قرب الظهيرة من كافيتريا الجامعة التي يحجز بها مصيلحي الساعي طلبات المكتب بأكمله وتؤنبه أميمة على العشاء بنفس الكلمات ووقع العبارة

أعجوبة

وربما النظرة التي باتت تشبه أمه قبل الأوان:

ـ *أكل البيت أنضف!*

يرمقها لوهلة دون تعبير واضح ثم يتركها بلا جواب وأحياناً أخرى إذا ما لمح منها تغييراً يستحق، أو استحماما ليليا رائق البال، وباباً نصف موارب، كان يقترب منها اقتراب الزوج.

وهكذا.. يمضي الْيَوْمَ بتفاصيله وبأنفاس أميمة الضائقة إذا ما أسقطت ضحى الحليب فوق ملابس النوم، أو بعثر سيف كتبه مجدداً بعد تحضير الحقيبة، يمضي بمكالمة روتينية لأمه بات يختصر وقتها يوماً تلو آخر ونظرة مشتاقة نحو هاتف أبيه الذي ما زال يحتفظ به منذ رحل. خمسة وستون يوماً مروا على تلقيه العزاء في علي الدين مختار الذي قدم استقالته على نحو فجائي من وظيفته الحكومية، بعد ثلاثين عاماً واستقر بأحد المنازل القديمة بحي السيدة زينب لمدة عام كامل؛ ليجدوه بعدها ميتاً في فراشه بكل سكينة ممكنة، وبين يديه صورةً قديمة لامرأة عشرينية كتب عليها بحبر أزرق ثقيل.

"ماجدة ١٩٨٤".

مع توقيع باهت نتاج محاولة محو غير ناجحة ولكن الحروف تجبر قارئها على اللحن.

صاحبة الرنان.

أعجوبة

ـ *أحمد أنا نازلة.. تفطر في البيت*

يوم آخر بروتين عبثي معتاد.. الثامنة صباحاً بتوقيت أميمة واللاشيء بتوقيته هو.. أميمة قررت أن أبناءها ثلاثة، وبديكتاتورية قررت أن تكون آمره وأمه.. أحرق صدره مرة أخرى بتبغه الرديء، وظل ملازماً لفراشه في تفكير جاد بمعاودة النوم والتحضر لسهرة عمل ليلية، فلولا مكتب محاسبة شريف زميله الأوفر حظاً، وتلك الوظيفة الثانية لغابت ابتسامة أميمة واهتمامها ووجبة الفطور على الأرجح.

امرأة ناكرة للجميل أميمة فهو ما زال بالفراش عاري كما نصت الفطرة بعد ليلة كافية لتعيد أمجاد زفافها المأسوف على شبابه وهي تتذمر بشأن إفطارها البيتي الممل.

تعبير ساخر اجتاح نصف وجهه بانفعال قلما يجيده أحد وشرود أخذه مجدداً نحو أبيه، ولَم يكن يعلم أن الشرود سيتحقق مع تلك النغمة الخافتة التي اخترقت حاجز صمته.. هاتف موضوع باهتمام في درج خزانته الأول ونغمة توقفت عن الرنين منذ ثلاثة أشهر.

ـ *آلو*

ونبرة رغم ترددها إلا أن تكرار الحدث لن يحمل مفاجأة على الأغلب.. صديق قديم أو جار كان على سفر ولا يعلم بحاشية الحدث وعليه أن يستدعي حزنه مجدداً، ويتقبل الصدمة بسكينةٍ وصبر، والصوت كان أجشاً هادئاً برزانة مذيع راديو!

أعجوبة

- *صباح الخير يا فندم.. ده رقم الأستاذ علي الدين مختار.*

أجاب على ملل ومضض:

- *ايوة.. بس والدي توفى من ٣ شهور*

- *البقاء لله يا أستاذ أحمد أنا عارف.. الحقيقة أنا عايز حضرتك*

واتخذ الحديث هنا منحنى آخر، شعر أنه تائه وهو لا يحبذ أن يتوه، لفافة شريف المسائية المحشوة تكفي وتجعل أميمة أجمل من المرأة التي كانت تزور أحلام مراهقته ولكن هذا تيه إجباري ويُحمِّله مسؤولية البحث عنه وهو متناغم جداً مع العيش كنكرة..

الكون أفضل كثيراً حين نراقبه من على الهامش.

عدم جوابه أباح لمحدثه الاسترسال وتلك المرة بنبرة أخذت شبه الأمر:

- *دكتور حفظي عبد السلام.. يا ريت لو حضرتك تشرفني في المستشفى لأنه عندي ما يخص والدك ولازم تستلمه بنفسك.*

استيقظت حواسه وبدا وكأنه في حاجة لتكرار الحوار فتلعثم في محاولة فهم:

- مستشفى!مش فاهم أستلم إيه؟.

ولَم ينل سوى تأكيد صارم من هذا الطبيب بنبرة تلاشى هدوءها بشكل تدريجي فبدا ذكره لاسم مشفاه حاداً فاقداً لصبره:

أعجوبة

ـ منتظر حضرتك النهاردة الساعة ٧ .. مستشفى الوادي للأمراض النفسية!

إذا ما سألت أحدهم كيف يبدو مشفى نفسي ستجده يحدثك بكل ثقة عن الموقع المتطرف بأحد هِضاب القاهرة والحديقة المريحة للنفس التي تشبه أرض الجولف كما تصورها الدعاية بركض امرأة راقية الملامح ترتدي الأبيض، ووجدت في جنونها الجنة، عن ذاك المبنى الأبيض الضخم المستقر على جانب الحشائش وتلك المقاعد الخشبية المتناثرة بالأطباء والمرضى، عن الكلب الأسود الذي كان يظهر لأول مريض مر بالمشفى والآن بات يظهر لهم جميعاً!

جميعهم يشردون بالخيال ثم يقدمونه إليك ممزوجاً بما اقتبسوه من مسلسل تليفزيوني مفضل أو شاشة سينما مرت على تفاصيل مكانٍ وهمي بكادر الواقع. أما هنا.. في تلك الحقيقة المجردة التي سقط بها سهواً فالمكان صغير، يقع متطرفاً بأحد أحياء المعادي وبأكثر مناطقه ازدحاما!

يشبه بشكل ما عمارة سكنية نصف جديدة ربما هي إرث الطبيب من عائلته أو ادخار سنوات الخليج كما العادة ولكنه بشكل عام ادخار جيد فالمكان به لمسة فخامة واضحة للعين المجردة بداية من رخام الأرضية اللامع والجدران المطلية حديثاً ببريق باهظ، الأثاث الجلدي الفاخر والطاولات الزجاجية البرَّاقة حتى ذاك الوجه اللطيف المناسب تماماً لأسطورة ملاك الرحمة.

أعجوبة

والملاك صوتها لطيف بدوره:

ـ *دكتور حفظي في انتظارك*

تبعها من باب تلو آخر حتى وجد نفسه في غرفة كلاسيكية فخمة لها جدران مبطنة بنسيج مخملي فاخر ونافذة واحدة هي مسرح رأس الطبيب ومُغلقة على الدوام. الطبيب كان له رأساً ضخماً ولو رأته ضحى ستعتقد أنه مخيفاً بتلك الطلة القاتمة نتاج اللاإضاءة في ذاك المكان المثير للمرض والمناقض لممر الاستقبال الذي عبره لتوه وحتماً للابتسامة الهادئة وإن تناسبت مع كادر الطبيب النفسي. خصلات تكاثر بها المشيب فباتت رمادية متلاصقة في مظهر اختفى منذ الستينات، شارب كث مشذب بعناية مع عينين ضيقتين تضيف لهما تجاعيد الابتسامة لمسة راقية.

تحية رسمية كانت البداية واختيار النوع المفضل من القهوة مع تعقيب ماكر يوحي بأن الطبيب وأبيه معرفتهم أكثر من عابرة.

ـ *قهوة سادة بن خفيف.. تمام زي المرحوم.*

وسؤال كان لابد منه:

ـ *حضرتك كنت تعرف بابا كويس.*

ابتسم حفظي برزانة قبل أن يرتشف القليل من قهوته متابعاً بثقة:

ـ *كان صديق ليه معزة خاصة*

ثم توقف لوهلة يرمقه بنظرة فاحصة قبل أن يستكمل بذات الصوت الأجش الذي حدثه به أول مرة:

ـ *وده كان السبب إني قبلت الحالة!*

تنهد أحمد بشبه راحة بترها جفاف حلقه مع ذكر الكلمة الأخيرة.

"حالة".

أقصى توقعاته كانت ملف يخص أبيه أو آخر بشأن أمه ومعها الحق!

ولكن..

وتجمد السؤال في عقله قبل أن يستقيم جسد حفظي في حركة ديناميكية أظهرت طول قامته.

ـ *أعتقد إنه جه الوقت إنك تقابل شهد.. شهد ريحان العطار*

وابتسامة مع راحة يد نحو طريق.. كان رواقاً خافت الرؤية يبدو بطول دهر لمريض لن يغادره مدى الزمن. صوت حفظي في الخلفية يبرر بلامبالاة أن الضوء القوي لا يناسب المرضى ويثير أعصاب الخطرين منهم..

هل هو بصدد مقابلة بعنبر الحالات الخطرة؟ أو فاقدي الذاكرة والهوية.. أم أن شهد تلك هي أخت غير شرعية له في تطور طبيعي لمفاجأة مثل تلك.

خطوات بدت كثيرة وطويلة حتى توقفت في مقدمة ممر آخر نحو غرفة تبدو كغرف الزيارات الواسعة وهنا لا ضيف غيره.. مقاعد خشبية متناثرة لم تكن به طاقة لاختيار أحديهما، ولَم يعرض عليه حفظي رفاهية الجلوس.

ولَم يكن حفظي هو بطل الرؤيا على أية حال. كانت بطلة.

أعجوبة

أربع ممرضات بقامات عريضة الشحم واللحم حول جسد نحيل ضعفه لا يناسب ضخامتهم، خصلات سوداء مشعثة قصيرة حتى منتصف كتفيها، ووجه أبيض شاحب تفاصيله خد نحيل وعيون دائرية واسعة فقيرة الرموش.. شفتين باهتتين تتمتمان بتلعثم حزين وبحث حائر بدا عنه!

وتفسير الحالة وحاشيتها كان الصوت الذي لازمه بعدها على مدى ثلاثة أيام متواصلة.

شهد شاكر ريحان العطار.. متهمة بقتل عائلتها بدم بارد ومحاولة الانتحار وخرجت لعدم كفاية الأدلة!

لا يوجد حدث على وجه الكون دون بداية،.. والبدايات على الأغلب تبقى واحدة وما نتذكره عنها هو الفوارق.

بعد مرور عشرة أيام ثلاثتهما على مائدة, هو وأميمة وشهد!

حساء وصحن دجاج بائت وخضروات مقطعة دون نكهة.. شهد على صمتها المعتاد شاحبة كما رآها أول مرة، ولن يساهم حساء أميمة في تورد وجنتيها، أما أميمة فهي كـ نسر رابض ينتظر الهفوة لينقض بشهية على الفريسة.. أميمة تؤمن تماماً أنه رجل أناني كعادة الرجال، ولا تفعل شيئا.. يحمل نصف جنون أبيه وعنترية أمه، ولا تفعل شيئا.

أعجوبة

يأتي لها مساء يوم بارد بعد أرق ثلاث ليالٍ ويخبرها بنبرة باردة أن هناك امرأة ستأتي للعيش معهم.. وتفعل كل شيء!

كانت ليلة عصيبة أسفرت عن سقوط مزهريتين وعمود فراش، وتمزيق سترته المفضلة وقرار مشترك باستضافة شهد..

قبلها كان الطبيب قد كشف له تفاصيل ظن شخص ما على وجه الكرة أنها منسية.. عن تلك الفتاة التي قرر أبوه دون سبب واضح أن تكون عهدته، تاريخ الجريمة سبق قرار رحيل أبيه لذاك المنزل بأسبوع واحد.. وكّل لها محاميا، حنكته براءة الجواسيس، ونالت البراءة في أقل من شهر والخطاب الموقع بخط أبيه يؤكد أنها تستحق.

أنها ورقة خضراء هشة عاجزة عن قتل بعوضة..

أنها هي شهد شاكر ريحان العطار ابنة ماجدة زاهد الشيخ.. امرأة أبيه التي لم يتزوجها وحفيدة عين التي غادرت الأحلام منذ رحلت صبرية وأنها تمتلك نصف المنزل الكائن على ناصية شارع البطل بحي السيدة زينب وهو أحمد علي الدين مختار الراضي، يمتلك النصف الآخر بموجب الإرث الشرعي عن أبيه علي الدين مختار بمبايعة من جدته بدر.. وبدر امتلكته بتنازل موثق من عابد الشيخ.

أنها بريئة لم تقتل أحداً بأدلة الدفاع وتوصية الطبيب وهلاوس نجوى وثرثرة الحي، ونبوءة عابد التي عاجلاً أم آجلاً ستتحقق.

كلهن سيرحلن ضحايا.

مع حاشية بسيطة تحمل توصية الموقّع بعدم إخراجها من المشفى!

أعجوبة

وابتلعت أميمة ريقها وبقايا الحساء وعيناها تعيد تفاصيل الخطاب المجعد الذي قرأته ألف مرة، ونفس الجملة ترددها على مسامعه منذ حضرت شهد..

ـ *أنا خايفة يا أحمد!*

ـ *زوجة أبي!*

بدا اختيار ضحى للفظ مثيراً للسخرية وحنقه, السخرية كانت من تكرارها الأمر بالفصحى أسوة بتأثرها برسوم متحركة أدمنتها والحنق كان انفعال صدره حين خمّن أن الأمر قد يكون أحد مخاوف أميمة.

ولكنه كان مخطئاً، فآخر شخص كانت أميمة تحمل همه في تلك المعضلة كان هو!أميمة التي قلبت المنزل رأساً على عقب باحثة عن مفتاح غرفة نومهما المفقود، وفي النهاية ابتاعت مزلاجاً ثقيلاً كي تضمن آمان عائلتها وقت النوم!

هي وضحى وسيف يتقلبون بنصف راحة على الفراش أم هو فاعتبر الأرض أريكته. وشهد قابعة في غرفة أطفاله كما جاءت أول مرة.

في صمت..

حين أخبره الطبيب بضرورة استلامها أصابه ذهول انتهى برفضٍ مطلق وتحول للجهة الأخرى من الضفة حين قرأ الخطاب..

أعجوبة

أعاد كلماته مراراً وتكراراً, بحث في أوراقه القديمة عن صورة لبدر.. بحث عن صبرية.. جلس في تلك الغرفة التي وجدوا بها جثة أبيه متغاضياً عن العبق المكتوم ورائحة العفن المتكومة وسط حفنة أغراض قديمة متفحصاً من جديد تلك الصورة التي وجدوها بيده.

الضحكة المختنقة والتوقيع الباهت.. الحزن المختبئ بمقلتيها والخصلات المتفحمة فوق وجه مليح يشبه ملامح ساكنة المشفى، الخطاب كان له..

والتوصية له..

حتى نصف هذا المنزل أصبح له..

وكأن القدر يرسم له دوراً لا مفر من اختياره، والحكاية تتطلب تتمة بتوقيعه!

وبعدها بساعة واحدة كان قد اتخذ قراره بإحضار شهد..

- *دي باربي..*

قالها بهدوء رائق وهو يلمح أناملها الرفيعة تمر بحذر على دمية نصف منكسرة تخص ابنته، كانت ترتدي ثوباً فضفاضاً من ملابس أميمة بدا عليها كجلباب، شعرها ممسد بأناقة طفلة في الثالثة عشر من العمر، وبحزم أم سامي المرأة التي تساعد زوجته في تنظيف المنزل والتي استنبطت بحكمة عجوز حيادية أن شهد تحتاج لمن يهندم هيئتها.

أحدى عشر شهراً وخمسة أيام في مشفى نفسي كفيلة بأن تغير حياتك، ستعتاد أن تبتلع الطعام دون خيار أو حتى محاولة شهية.. بالتدريج ستفقد الإحساس بالغضب أو الفرح.. الحزن أو السعادة نتاج العقاقير التي

أعجوبة

احتلت جسدك ثم ستنسى مع الوقت أنك إنسان له رغبة.

سترتضي الهامش ظناً بأن رحمة الكون ستكون أفضل!

- *دي باربي*

كان جواب منه دون سؤال، بل كان أول تواصل إنساني بينها وبينه.. استدارت نحوه بحيرة صادقة وأناملها ما زالت ترتجف فوق اللعبة، تمر بحزن فوق خصلاتها المنتوفة وتدرك أن عينيها جاحظتين دون حراك.

كالموت.. فلحظة القتل ناحرة تفقدك الحياة في خطفة لترحل ببساطة وكأنك لم تكن.

مرَّت دقيقة ونصف وهي على حالها متشبثة بقطعة البلاستيك المهترئة في يدها، تضم عينيها في ألم وتستدعي شيئاً لا يفهمه.. تتأمله بذات النظرة التي رمقته بها حين رأته في المشفى لأول مرة..

تتشبث به.. تستنجد.. أو ربما تظن بشكل ما أنه سيكون مُنقذها!

وكان هذا سبب كافي ليخرج صوتها معه، ومن أجله فقط وبلفظ كان كافياً ليعيد كلاهما إلى البداية..

- *أنا عايزة أشوف بدر!*

أعجوبة

أعجوبة

٢

نحو البداية

"تذكر أنه لولا الوهم لفقد العصفور القفص".

قرأت في عينيه التباس وعلى شفتيه تتعتع مستحق، وهو حقاً يشبه أبيه رغم اختلاف التفاصيل. أيظن أنها لا تعرفه.. لم تسمع به!

لم تبكِ بين ذراعي أبيه رغم أنه مثلهم مذنب.. لم تصرخ وتطلب الخلاص ولم ينجدها أحد..

أيظن أنها مجنونة في بحثها عن بدر؟.

بدر ماتت نعم ولكن الموت هو جدار فاصل لا يعبره سوى القلّة.

ظلت ثابتة مكانها مستندة على الفراش حتى عاد لها مجددا، بين يديه حمل ثوباً شبه أنيق بلون أخضر غامق، وكوباً من العصير ظن أنها تحتاجه وعاد مجدداً نحو نداء أميمة، كانت تصرخ به في محاولة فهم وصبر بدا أنه قُتل في صدر امرأة لتقذف بعدها وجهها سبع قرارات تحذيرية جميعها تحمل حروف شهد ورحيل، ملعون هذا الإرث وهذا المنزل، بل ملعون أبيه بحد ذاته. وهنا تجمدت عيناه لوهلة في تحذيرٍ قاسي نادراً ما يمر به

أعجوبة

ثم تركها دون لفظ.

استقل سيارة أجرة وجاورها هي لا السائق، لمح ارتجاف أناملها مجدداً والأهم وإن أثار الأمر شفقته دون الحفيظة أنه لمح بين كفيها الدُمية.. كانت تبكي.. تبكي بحرقة صامتة قيدت بشكل موجع انفعال جانب وجهها الأيسر بأكمله، ولم تشعر حتى بنفسها وهي تسحب من حقيبة صغيرة في يدها حبتان من عقار أوصى به الطبيب فابتلعتهم بمرارة دون ماء.

السماء كانت معتمة تنبئ بمطر لا ينوي المجيء، والوقت كان مبكراً بتلك البقعة السكنية المهجورة نوعاً ما، وثرثر الحارس أن الحي ينوي بيع المنطقة بأكملها لمجموعة استثمارية ضخمة وسيقومون بنبش القبور لنقلها مجدداً، وكأن هذا الوطن بات قليل الراحة حتى للموتى.

تخطاه كما تخطى الطفل اللحوح بطلب طعام ليس بحوزته، وهرولة امرأة أخرى تبيع تلاوتها للقرآن. شعر بنفسه يركض خلفها، كانت تعلم طريقها جيداً مما أوحى له أنها جاءت هنا من قبل؛ ليس لمرة واحدة، بل لمرات عدة.

بعد مرور مُهرول بأكثر من مقبرة توقفت أخيراً أمام ما تبحث عنه..

"بدر ناصر محمود العامري".

مدافن عائلة السعيد.

عائلة جدِّة أبيه..

أعجوبة

أنت في خضم الحياة تنسى تاريخك. تلك التفاصيل المزدحمة عن ابن عمة جدتك أو عروس ابن خال أمك لا تعنيك في شيء، هؤلاء أناس أنت لا تكترث بهم.. لا تعرف تفاصيل أسماءهم ولا تهتم بحاضرهم وإن اصطدم بك.

أما الموتى فهم سقطوا من الخريطة قبل أن ترسمها!

"بدر ناصر العامري".

جدة أبيه.. وسبب زيجة أمه.. ومانحة نصف الإرث المشئوم.. وأتمت من العمر مائة عام وسنة قبل أن تموت في فراشها بدفء وتترك لأبيه سراً لا أحد يفهمه سواهما وتلك الفتاة التي تقذف اللعنات فوق قبرها.

ـ *قتلتيها*

الوضع كان هستيريا بمأساة.. أسنانها تصطك فوق بعضها البعض في اضطراب مُختَّل وعيناها تميل بجحوظ مسكين نحو العدم. تخطو بارتباك نحو الحاجز الحديدي، ثم تضرب الأرض بقدميها وتنبش التراب بيأس تلو غضب وكأنها في معركة إيذاء مع جثة!

تهدأ.. تستكين.. تلتقط أنفاسها في عشرين ثانية لا أكثر، ثم تُعاود الصراخ ببحة مدوية وتُخرج الدمية من بين طيات ملابسها وتُقبِّلها بحنان قبل أن تخلع رأسها في نصف محاولة تماماً كالذبيحة في ليلة قتل.

اجتمع نفر قليل أراد أن يحتوي جنونها.. قذف طفل بريء بوجه ثمان سنوات بسُباب نطقه هو في حياته مرة واحدة وشعر بالندم!وتبرَّم حارس المكان مع زفرة لا تحتمل "وجع دماغ " على حد تعبيره مع نبرة غليظة حازمة:

- *خُدها يا أستاذ مش عايزين وش.*

ولا يعرف ما الذي جمدّه.. تصلب مثل جسدها الذي عاد لجموده الآن دون أن يكترث بالجمع, عادت للدمية لتضع فوق رأسها قُبلة أخيرة قبل أن تنبش حفرة عشوائية أمام القبر وتمددها فيها وعيناها تنظر وكأنها ترى بدر بملامحها الصارمة من خلف الجدار.

عيناها تكره.. تستنجد.. تغيب..

والحشرجة تغوص داخل صدرها بنفس الكلمات مع تبديل لم يوقنه.

- *قتلهم!*

- *اهدى يا أستاذ أحمد.. حتاخد حبايتين من العلاج بتاعها وحتبقى كويسة*

- *يعني إيه حتبقى كويسة.. أنت أكدتلي إنها طبيعية تماماً واللي شوفته دلوقتي ماكنش طبيعي يا دكتور.*

دائرة من الفراغ المطلق كان يدور بها وعلى أذنه هاتف.. هي مستندة برأسها في شبه نوم فوق نافذة سيارة الأجرة وسائق متأفف من الانتظار.

وآخر مُتبرِّم من الاختيار!

يلقي بعبئه فوق أذن طبيب ويصرخ هارباً منها ومن نفسه، فليأخذوها مجدداً.. فلتحتويها قضبان المشفى.. فلترحل بصندوقها الأسود فلا طاقة به لأن يفتحه.

أعجوبة

وزفرة طويلة منه مع صداع قاتل اجتاح ضميره!

ومبارزة فاشلة مع طبيب عقل.

- *خودها*

- *مش مريضة*

- *نص مرضاك عاقلين يا حضرة الطبيب*

- *ونص اللي حواليك مجانين يا حضرة الفيلسوف!*

- *والحل؟*

والسؤال هو اقتطاع حوار المالانهاية، ورغم أن حفظي كان مستمتعاً به إلا أنه في النهاية كان يجب أن يبتره، كان يجب أن يمرر شهد من جديد نحو الحياة.. أو ربما نحو المنطق!

برود نبرته كان ديناميكياً مُخيفاً.. يشبه مرور راوي متعجل على أطراف الرواية ولكن بهدوءٍ متمكن من الحبكة:

- *بيعوا البيت القديم وخد نصيبك وهاتها هي ونصيبها عندي في المستشفى*

وتوقف لثانية قبل أن يُتبع بفحيح فظ:

- *حتعيش هنا مع النصف العاقل!*

وانتهى الحوار مع استيقاظها وهي ترمقه بنصف حيرة من النافذة، نصف براءة فالكمال لن يمر بعد ما اختبره أمام قبر..

نصف وجع..

ونصف يقين تقذفه به وكأنها تعلم خطته الرخيصة.

جاورها بلا تعبير وأشار للسائق بالتحرك دون أن يمليه عنوان وأتبعته هي بنبرة قدَرِيَّة:

ـ *السيدة زينب*

قالتها بهدوء ثم تركت النافذة لتستند على كتفه.. جبهتها باردة كالثلج ووجهها دافئ، أنفاسها تضرب عنقه بسلام عابر لشرايينه، وخفوت من صوتها خفف على حيرته الصدمة. وكأنها تمرر له الحل والنهاية في نفس العبارة..

"عايزة أروح بيتي".

الطريق نحو الماضي يبدأ بمفتاح صدئ لا أحد يود استعماله، صدقوني لا أحد يود العودة.. نحن سقطنا في بؤرة انفتاحية ضحلة استوعبت غرقنا ببراعة.

نحن لا شيء.

وهكذا سنبقى!

تأملته بعينين فاترتين وابتسامة قبل أن تبدأ تلاشت. ينتقل بين الأوراق بهوس من وجد كنزاً ثميناً دون أن يدرك قيمة الياقوت. يتنفس العبق الهارب من شاب ثلاثيني منفجر خمد وصار أبيه. ينظر نحوها بتعلق

أعجوبة

وهي تحضر له من خزانة مترية صندوق آخر وقصصا جديدة حفظتها أمها عن ظهر قلب.

فهي ثرثرات العاشق.

جاورته على الفراش تستعيد معه حروف ما قرأته مراراً.. ربما ترسم جواره بعين الراوي تفاصيل الحكاية.

ربما تعود.

ربما تنتهي أو تبدأ.

جاوبته قبل أن يتسلل السؤال:

ـ *كلهم هنا*

وأشارت بأناملها نحو الأوراق المتناثرة.

ـ *وهنا*

وتحولت الإشارة نحو قلبها, القلب لا العقل.. فثلاثتهن كن جزءاً منها, بل أربعة..

خمسة!

تأملها وبدا وكأنه ستعود وتعيده نحو بداية الحكاية، تكرمش بين كفيها صورة تفاصيلها متهالكة ودهسها الزمن. وتنظر نحو فراغ فوق حائط مشقق يتدلى منه برواز أجوف منبعج فتخطو بسكينة نحو مسماره كي تثبته من جديد.. تعيد تركيب الصورة المجعدة باشتياق مغمض الجفن وتترك له مقدار الصدمة.

كانت هي..

نفس ملامحها ولكن بفارق زمني قدره ستون عاماً!

استدارت وكأنها تبيح له خيار الرحيل، فمفتاح الماضي الصدئ قد يحمل طريق اللاعودة.

لا شيء يصبح كما كان.

أو كما قالوا من قبل.. فكل من مر بالبيت القديم نال نصيبه من صدح صاحبة الرنان.

توقف عن تفسير المعقول.

فاللامعقول ينتصر!

عن تعريف الخرافة.

.ROLLO MAY

٣

البداية

صبرية.

١٩٤٥.

تُراه يملك صباحاً مشعاً بنظرة عين..

يطلقون عليها صاحبة الرنان, يجلس هو متكئاً على ركبتيه بعد وجبة إفطارٍ موصِدة للمعدة. فحبيبات الفول كفيلة بسد رمقه حتى مغيب الشمس وخاصة إذا ما أتبعها بكوب من الشاي الأسود فينتفخ رغم فقره بانتشاء..

ولمَ لا؟.

ألا تمر كل صبيحة أمامه متهادية بساقيها المرمريتين, يهمس لنفسه معاهداً «**ستكون لي**».

يتمايل رغماً عنه فخلخال الفضة يُطرب أذنيه وصوتها الرفيع يتخطى الزحام ليصله فيترك صندوق أحذيته وفوطة الكدّ خاصته من أجل لمعة حذاء ويتوجه نحوها عارضاً خدماته بشهامة. يحمل فوق رأسه وليمة

أعجوبة

غداء لمخدوميها، ويتغزل بصراحة في عينيها.. شفتيها.. ويتجرأ بنظرة نحو نهديها.

وتضحك وتهرب وتهمس وتَعِد وترحل ويبقى هو حالماً بها ليلة أخرى؛ منتظراً لحظة حظ وسعد تمكنه منها تحت سقفٍ مباح.

اسمها صبرية.

ظلموها العباد فهي تستحق مسمى مرمرية.. عطرية..

تنهد وقطعت صورتها تسكعه المسائي مع رفقاء الفقر. تركهم ليعود لمسكنه الخشبي فوق سطح متهالك، هناك تتسلل إليه ببقايا طعام وفاكهة، يعدها بغرفة حجرية وفراش وشعلة متوهجة من أجل طعام ساخنٍ، يعزف فوق أذنيها موسيقى عشقه فتتورد وجنتاها بحمرة مسكرة وتتردد شفتيها مبتعدة عنه في تمنع:

ـ *لا.. يا «**سي عابد**». في الحلال*

ينتفخ غروراً تناديه سي عابد!

تركع خادمة تحت رغبته وتدلك قدميه كل مساء، تنفث في لهيب بخور لتعطيه رقية من شر العين. يبتسم في أريحية ويتصور حاله بشارب من شيم الرجال وهي محفوظة بين ذراعيه بمنأى عن كل تطلع. يزمجر.. يخبرها أنه يكره الثوب.. ساقيها وفتنة العيون.

تطغى سيطرته فوق أنوثتها بشدة عاشق.

«خبئي عينيك.. شفتيك.. خصلاتك.. بشرتك.. اختفي كلك لأستريح!.

أعجوبة

تبكي ويضعف ويخضع ويعدها بالمال والستر ويهديها رنّاناً آخر هامزاً:

ـ *ده تلبسيه لعابد بس.*

تلمع عيناها فرحاً بهدية وترتديه على الفور وترحل برنّاته متغنجة وينسى هو كل شيء. ويعود من جديد ولصباح جديد منتظراً طلتها.. رنّة قدميها.. عيناها المتطلعة بفضول وابتسامتها المسكرة نحوه, يترك عمله ويرفع فوق كتفيه مشتراوتها ويحصي مدخراته من أجل يوم التلاق.

مع صاحبة الرنان..

منزل الباشكاتب يختلف عن باقي منازل الحي, كل أمرٍ به منوط بدقات ساعة.

فالباشكاتب يستيقظ مع خيوط الفجر, يصلي ويعود ليجد بانتظاره فطوره الشهي وكوب من اللبن الدسم. وقبل أن ينتهي من ارتداء ملابسه تأتي له الأستاذة بفنجان القهوة، والأستاذة ليست امرأة عادية بدورها فيكفيها لقب الأستاذة التي تتفرد به من بين جميع النساء.

لم يكن بملامحها جمال وتندرت الزائرات على أمها منذ الصغر, أصر والدها تاجر المواشي أن تنال نصيبها الأوفر من التعليم ووقتما كبرت وأصرت على الالتحاق بمعهد المعلمات ثارت الأم واصطنعت إغماءه, فالمعلمات لا يتزوجن بقرار عنتري وكأنها عنوسة مبررة!ولكن بدر وهذا كان أسمها أصرت بعند توارثته أجيال بعائلتها ولم تبالي بشيء وشجعها

أبيها الذي وجد في دراسة ابنته ما قد يهديها بعد ذلك رجلاً ذو هيبة بدلاً من كسور الزمان التي تطرق بابه طمعاً وليس طلباً.

ومرت السنوات على بدر وتزوجت بنات العم وبنات الخال والجيران وهي تتخطى العشرين بل زادت عليهن خمساً واكتسبت بجدارة ولوي شفاة وتهكم على بدر التي ليست ببدر لقب عانس.

وكما أسمعتنا الأمثال « **كل فولة ولها كيال**» ظهر كيال بدر وكان رجلاً ذو سمعة طيبة يجزم بها الجميع, سمع عن تلك الفتاة المتشبثة بسلم وظيفي رغم ثمنه القاسي.. وجد نفسه يخطو نحو منزلها ويجازف ويطلبها لزواج. كان ثلاثيني، أنهى لتوه زيجة ويبحث عن أخرى..

أخبروهم أن زوجته الأولى كانت مدللة، ابنة لموظف بدرجة رابعة ووحيدة أمها ورقيقة كزهرة. لم تتحمل طباعه الانتقائية فكل شيء يجب أن يكون أمامه قبل أن يطلب وبموعده قبل أن يفكر, كان رجلاً واسع المعرفة وكانت بمقتبل حياة وبعامها الثامن عشر لا تفهم سر انكفائه لساعات فوق كتاب.

أبو بدر وجده الفرصة المفقودة فتشبث به وصفع بدر للمرة الأولى من أجل القبول, بليلة صفاء أخبرها الباشكاتب لو كنت أعلم أنه صفعك ما تزوجتك. ولكن كانت بدر هي حقاً من تليق بالباشكاتب وهنأ نفسه هو كل ليلة باختياره الصائب.

هي امرأة نشيطة بطبعها لم تتذمر يوماً من اهتمامه بالتفاصيل. اعتادت مطالبه واعتادها هو فأصبحت بعد سنوات هي من ينظم حياته تبع أهواءها. لم تنجب بنين ولم يلح هو بالمحاولة بعد ثلاث فتيات كلهن

أعجوبة

نسخة منها. كان يبتسم ربما كن قليلات الحظ بالجمال ولكن إن اكتسبن طباع أمهن فهنيئاً لمن يفوز.

بليلة جاءها بصبرية، كانت ما زالت فتاة بعامها الرابع عشر.. رمقتها بدهشة:

ـ *لا أحتاج*

وكان جوابه كافياً:

ـ *أبوها يحتاج*

ترعرعت صبرية بمنزل الباشكاتب ولم تثقل عليها بدر يوماً بطلبات كانت تترك لها القليل من العبء وتشفق عليها وهي تراقب فُتنة، وحُسن، وقمر، وهن يذاكرن بنشاط دون أن تفهم مما يرددن شيئاً.

بليلة بعد صلاة الضحى وكان الجميع بالخارج سواها وصبرية نادتها.. كانت تدللها «**آخر صبري**».

جلست بدر على كنبتها الخشبية القاسية وهللت:

ـ *تعالي يا آخر صبري*

تأتي صبرية متعثرة بجلباب, كانت ما زالت بطور مراهقتها ولم تتمكن تلافيف الفتنة من جسدها بعد ولكن وجهها ينبئ بجمال جبَّار.

تضحك بدر فالفتاة ابتلعت حظ بناتها من الحُسن ولكنها لا تكيد ولا يتمكن منها الحسد فهو تقسيم الرزاق, تجذب الفتاة وبمجاهدة تلقنها حروف. وتستمع صبرية بنزق وتفهم النصف تارة والربع تارة ولكن بعد جهد أربعة أعوام أصبحت تفك رموز الخط وهذا يكفي..

وبالعام الخامس تزوجت آخر بنات بدر ولم يبقى معها بالمنزل سوى الخادمة المشاكسة صبرية والتي آن أوان زواجها هي الأخرى.

كان رجلاً تقياً, زاده بالحياة حجرة طينية وقيراط زهد زرعه وحصده فتركه لصاحب نصيبه يرويه وينفحه برزقه كل حين. وقتما تزوج أختارها مليحة ثم غار عليها من جوع النظرات، فغطاها كلها بخمار وسكت عن ذكر اسمها أمام الأغراب وحتى الأقارب فكان يناديها بأم الصبيان، وتأخر قدوم الولد والبنت أيضاً وكانت تبكي كلما صاح بها أو حتى همس وكرهت اسمها وتمردت عليه.

ضحك باكياً ذات ليلة وهو رجل قلما ما تخرج من عيناه دمعة. انتفضت ضاربة صدرها في ندم:

ـ *الذنب ذنبي يا شيخ*

ومن وقتها لم تحدثه بهذا الأمر يوماً حتى جاء صباح بمعجزة انتظراها طويلاً، وضعت يومها توءمان كالبدر يشبهانها كثيراً ليلتها لم ينم الشيخ وظل يتأملهما طوال الليل ويسبح.. من بين ضعف النفاس سألته:

ـ *بتقول إيه يا شيخ؟*

ابتسم وقد أضاء وجهه كما لم يضيء من قبل ثم قال وهو ينظر نحو السماء وكأنه لا يحادثها هي..

أعجوبة

- *سبع سنوات أسبح وأطلب الرزق من خالقي تُراني حصلت مبتغاي فأصمت!*

بكت ولكن تلك المرة كان بكاءً من الفرح, طلبت منه أن يرفع صوته لتذكر الله معه وتقول مثلما يقول ورفع صوته ورددت خلفه ورفع صوته أكثر وبكى مبتهلاً وبكت ومضت ساعات الليل قصيرة. سألته بعد فترة:

- *حتسميهم إيه يا شيخ؟*

وكأنه اختار منذ زمن فأجاب بوجه مطمئن:

- *عابد وزاهد*

ابتسمت ثم ضحكت مقهقهة بعفوية فقطب جبينه مندهشاً, رددت:

- *ومين العابد ومين الزاهد؟*

عندها فقط أيقن مقصدها وتوأماه المتشابهان كورقة شجر يافعة، ضحك بدوره حتى كاد يُدمع وظل حتى لحظة موته يخلط بينهما.

كان عابد هادئ الطباع قامته قصيرة نوعاً وكأمه وأخيه له حاجبان حالكي السواد بشكل هلالي صارم. زاهد كان يفوقه طولاً بفارق بسيط مكنهما لسنوات من التحايل على أبيهما العجوز خاصة كلما أخطأ زاهد وقرر عابد بنخوة تلقي العقاب بدلاً منه. بعمر الرابعة عشر قررت أمهما ترك البلدة خاصة بعد أن رحل الشيخ وبقيا وحيدين بسبيل رزق ينحصر شهر تلو آخر. باعت القيراط وصرت نقودها وحليها حول خصرها واستقلت القطار للمحروسة فهناك تسكن زينب ومنذ سنوات تخبرها زينب عن شوارع المحروسة وأهلها, عن فوانيس رمضان المضيئة وعن فطير السكر حلو الطعم من نفحة الأتراك وعن صوت المذياع الذي يربك

أعجوبة

خصر النساء فيتهادين دون رادع وقتها ارتعدت باصقة في صدرها:

ـ *اختشي يا زينب.. رقص, لو سمعك الشيخ يقتلني*

ضحكت زينب بخلاعة وقرصتها في فخذها وهي تهمس:

ـ *ارقصي له يا عين.. وصدقيني آخر ما حيفكر فيه قتلك*

ليلتها تركتها زينب مع قميص أحمر وصبغة غريبة لشفتيها, فكرت وقررت أن تجرب, لم تكن بالطبع تمتلك مذياعاً فقررت أن تغني وغنت القليل مما حفظته من زينب. عاد الشيخ وتسمَّر على باب حجرته وهو يلمحها ترقص أمام لوح المرآة بشبه ملابس وتدندن بوساوس شياطين.

تلقت يومها علقة ساخنة لم تنساها حتى اليوم وهجرها الشيخ في الفراش لثلاثِ أشهر وحرق العهر الأحمر ومنع عنها زينب وكل الصديقات. ابتسمت بحسرة وهي ترمق جلبابه المعلق وحيداً دونه وشدت الرحال نحو الدنيا.. نحو الناس والفوضى والضوضاء والحياة، هناك عند زينب.

وكانت زينب بالفعل تعيش داخل مذياع, أرض الشياطين كما قال الشيخ.. نساء شبه عرايا ورجال مقززي الطلة والأنفاس فوق عهر مقسم بغرف منزل بغاء شهير بالحي، نفثت واستعاذت بربها من وساوس الشيطان وجذبت ولديها وأطلقت ساقها لرياح ومن ميدان حتى زقاق استقرت ببقعة مزدحمة استأجرت فيها غرفة وابتاعت بما تبقى من النقود أوراق خضراء تجلس أمامها كل صباح وبجانبها طفليها،،.

«**بائعة فجل**» جميلة بجسد يسلب لب الشيطان والواعظ. أرهقها الطامعون وكانت تقضي نهارها تكافح من أجل الخبز وليلها تبكي فوق وسادة قاسية. وتأتي زينب.. وتعدها بالراحة وبأموال الرجال فتبكي مجدداً

أعجوبة

وتلعن حظها ويحتضنها عابد ويهرب زاهد..

وكبر عابد قبل الأوان وابتاع بما تبقى من فرش الفجل صندوق أحذية يحمله فوق ظهره كل صباح ويعود وبما قسمه الرزق لها وله، تمتلأ عيناها بدمعات:

ـ *كبرت يا عابد*

ويضحك ويقبل جبهتها:

ـ *أطبخي يا عين*

يسد جوفه بالزاد والماء وقبل أن ينام تسأله كالمعتاد بكلمة واحددة لا تحتاج لزيادة أو نقصان؟:

ـ *زاهد*

يضحك بآسى:

ـ *رزقه أوسع مني ولكن من جوف الشيطان..*

لم تكمل عين عامها الثلاثون وماتت وبات عابد وحيداً يسترق النظر كل حين نحو أخيه الذي بات شهيراً في حي قريب، ينصر من يدفع ويدهس من لا يملك.. تغيرت صحبته وتغيرت هيئته فبات أكثر ضخامة وربما طولاً, ملامحه صُبغت بقسوة شارب ضخم وأثر جرح من معركة سابقة مر بتعرج على جانب جبهته، تزوج مرتان ولم يحتمل ثرثرة النساء وعراكهن فطلقهن وأصبح زبوناً دائماً لدى زينب!

أعجوبة

بجلسة أنس سبّ فتاة وعندما اعترضت زينب صفعها فانبثقت الدماء من شفتيها, هذرت بتشفي:

ـ *نهاديك ببنت جديدة.. سميتها عين!*

جن جنونه، فبات يحطم المكان كالثور الهائج.. أمسك بتلابيبها ليرفعها فوق الحائط بيد واحدة:

ـ *اسمها زوجة الشيخ..*

عراك أصبح مكرر غالباً ما ترضخ له في النهاية فهي لا تقوى على مجابهة زاهد الذي تقوى شوكته يوماً بعد يوم.

وهو.. هو دون مقدمات يجد نفسه يشتاق إليه, توأمه الضعيف كما يراه. يحجز نفسه بصندوق مشقق وفي النهاية سيموت من الفقر مثل أمه..

ارتدى جلباباً نظيفاً وعطَّر نفسه بزجاجة غالية كان قد سرقها من إنجليزي سكير ووضع شاله وخرج, وحينما مر ببصره فوق جدران المنزل أيقن أنه خاوياً دون روح ودون أنفاس امرأة مثل عين ترقد بابتسامة تحت قدمي الشيخ حتى ولو أحرق حلمها عن السعادة وعندما خرج أيقن أنه يحتاج لثالثة!.

وهناك على أحد جوانب الحارة كانت تقف متذمرة فعابد يغار.

كيف تضحك لصبي المكوجي.

وتتندر مع حسن البقال.

والعابث حمو يطاردها الآن.

أعجوبة

لا خروج.

لا عمل.

لا رنّان.

تركته متذمرة وأنسته أن يعطيها الهدية, كان قد ابتاع لها خلخالاً جديداً وهذا له أجراس تدق وتدق كالدفوف في أذناه..

نادها:

- *صبرية*

استدارت وقد اغرورقت عيناها بالدموع وضعف في حينها فطلب منها الغفران وأخبرها لدي لك هدية جديدة وحلّفها ألا ترتديه سوى بليلة زواجهما. تنهدت بقلة صبر:

- *امتى يا عابد*

ابتهج:

- *مش صابرة على اللقا يا مهجة الروح*
- *مليت الخدمة في البيوت*
- *مليتِ بدر!*
- *مليت الأوامر*
- *تحبك زي البنات*
- *أنا مش زي البنات*
- *أنت الأجمل*
- *وهما السعد معاهم. نصيب كل واحدة أفندي.*

أعجوبة

«وأنا نصيبي إسكافي!».

لم تنطق جملتها الأخيرة ولم تكن بحاجة فعيناها كانت أقسى وقعاً, ملس فوق رأسها بصبر لا يمتلكه سوى المحبين:

ـ *هانت.. هانت يا صبرية.*

مر أسبوع.

هل حقاً مر أسبوع منذ أن أهداها عابد خلخالها الجديد. أسبوع ولم ترتديه كما أمر.. هاهي تنفذ أوامره وتحافظ على ثمينها بورقة صفراء داخل صندوق ملابسها.

فتلك المرة الخلخال مغطى بقشرة ذهبية, لم تكن تتصور أن لون الذهب سيتماشى مع قدميها بهذا الجنون. آه لو ارتدته بالحارة، سيتبعها الجميع كالمسحورين ربما تتعثر بأفندي يشبه ذاك الذي تزوجته قمر.. له بشرة حليقة وملبس نظيف ويحسن الكلام والمغازلة حتى أنه يغازل زوجته دون خشي أمام الباشكاتب, تراه ماذا يفعل في خلوتهما.. توردت وجنتيها وضحكت بشدة ولكن ما لبثت أن اعتراها الحزن,

فهي الأكثر جمالاً والأقل حظاً.

كادت أن تعيد الخلخال مكانه ولكنها تسمرت مع دخول بدر للغرفة بابتسامة حانية:

ـ *مبروك يا صبرية..*

أعجوبة

فلقد طلبها أحدهم من الباشكاتب. لم تصدق نفسها وتعثرت وهي تتوجه نحو حافة الباب حتى تلمحه وابتسمت وهمست تغير عابد!لم يكن بالأمس بهذا الجسد ولا هذا الشارب!

وقبل أن تفكر فسرت بدر:

ـ *اسمه زاهد..*

أعجوبة

أعجوبة

٤

وبين الزاهد والعابد تفرقت تركة شيخ!

والإرث هنا قد لا يكون قوة ولا جاه وقد لا يكون عين التي رحلت دامعة تشتهي ريح ولدها الغائب ولا حتى دمعات عابد الذي أمسك بتلابيب أخيه أمام قبر أمه.

لا شيء.. مجرد أخوّة وغابت بذورها, عابد الذي اختفت حبيبته بين يوم وليلة.. وجاء الخبر بمساء يوم غلفته الأمطار.

تزوجت صبرية، تزوجت مهجة القلب.. ومن أخيه.

وقرارها اتخذته بعد اللقاء بأربعة أيام. كانت تجلس فوق فراشها تحصي هدايا عابد, كل رنان وله ذكرى، ومعها الأمر يشبه نسيم قريتهم البعيدة.. هي وعابد ومنزل طيني جوار عُشة من القش، رفعت آخر واحد أمام عينيها ولم يكن الآخر ذو القشرة الذهبية الذي اقتصد عابد ثمنه من قوته. كان آخر. ذهب حقيقي عيار واحد وعشرين. هكذا قالت بدر وتبرمت فكان الأجدر به أن يحضر أساور ذهبية وال "**ما شاء الله**" لتلفها حول رقبتها ولكن زاهد اشتهاها بهذا الرنان، وبضوء شمسه فوق كاحليها، اشتهاها لأنه رآها هناك معه.

أعجوبة

اشتهاها بتلك اللحظة التي عرف أنها حُلم عابد.

وكانت الدنيا قد انقلبت لزفاف والألسن تتحدث عن عروس الفتوة وتركتها بدر لبعض النسوة بأيادي متشققة وهربت منهم ومن جو البخار الخانق من هذا العقاب المسمى حمام العروس وبكت وحيدة بين الظلام ليلتها لا لأنها تنكرت لعابد ولا لأنها اختارت المال وملحقاته ولا حتى لرهبتها من وجه زاهد.

بكت لأنها علمت أنه أخيه.

وكان بكاءً قصير الأمد فزغاريد النسوة وظهور زاهد بجلبابه الرمادي الثقيل أجبروها على الصمت وتلا الصمت صراخاً رج أركان المنزل وفي صبيحة اليوم التالي ظهر زاهد أمام عتبة بابه بوجه منير وبدا وكأن شاربه الملفوف قد زاد سواده، والمنزل كان مستقلاً يقع بعد ناصية الحارة بأربعة جدران واختار زاهد أن يشيده بدورين وسطح أسمنتي واسع وحينما دخلته صبرية أول مرة ودت أن تركض بين جوانبه كطفلة وعقلها يصرخ..

"أكبر من منزل الباشكاتب".

وبعد شهرين من الزواج أيقنت أن حجم البيت لعنة فكانت تستيقظ من الصباح الباكر لتصعد فوق السطح وتجمع البيض الطازج من اثني عشر دجاجة ابتاعهم زاهد خصيصاً لبيضه، فهو رجل ذو شهية واسعة يفطر بعشر بيضات مقليات بسمن أصفر ثقيل، والفول يجب أن يكون ساخناً بلهوبة القدر تحته. أما الخبز فيتكفل به أحد صبيانه.

كان يفطر ويرحل فلا يعود إلا وقت صلاة المغرب، جلبابه أحياناً يحمل بعض الدماء فتعلم حينها أن كان بعَركة وهو اللفظ الدارج لعراكات

أعجوبة

الفتونة وقتها, وتُعارك هي بدورها في البيت طوال النهار ففي يوم ما طلب ذكرا من البط على غدائه وكان ذكراً شريراً عض ذراعها البض أربع مرات في محاولتها لذبحه وفي النهاية استعانت بنعمات الغسالة وهي تدعو ألا يعلم زاهد. ونعمات كانت عجوز سمينة لها مؤخرة ضخمة عادة ما تبتلع فرشة الجلوس عند صبرية وكانت كثيرة الثرثرة فتحدثت عن بنات بدر اللاتي أصبحن يرتدين ملابس ضيقة ويضعن في خصلاتهم ما يشبه عمامة الرجل ولكن اسمها قبعة وتحدثت عن خليلة زوجها التي رقصت أمام منزلهم مساء زفافه وغمزت له أمام الجميع وأخيرا حدثتها عن عابد، ولم يجتذب صبرية الحديث عن خليلات زاهد بقدر تلك الغصة التي أصابت حلقها حينما ذكرت نعمات عابد.

فعابد يمكث من وقت زفافها في بيت شيخ الجامع ويُقال أنه ترك عمله وصندوق أحذيته بليلة ممطرة وطفق يدور بالحارة يبكي كالأطفال ويبيت ليله أمام قبر عين.

والحارة تعج بكلمات عنها وعنه وعن أخيه ويُقال أن الشيخ درئاً للفتنة قرر أن يزوجه ابنته. وليلتها ومع ذكر البط السمين وافتراس زاهد له دون رحمة كانت هي شاردة تراقب بقايا الطعام المتدلية من فمه بتقزز وتستمع رغماً عنها لمغامرة دماء أخرى تخبرها أنه هو الفتوة وترتدي قميصاً مفتوح الصدر بلون أحمر فاقع ورنانها ينبض بقدر عيناه نحو كاحليها أما عيناها هي فكانت متعلقة بجلبابه الذي تلوث من بقايا لحم البط المدهن، وكفيه الذي مسحهما على عُجالة بمنشفة وضعتها جانبه وفمه الذي أسقط كلمات فاحشة وهو يقترب منها في إشارة لافتراس من نوع آخر.

أعجوبة

وكان الأسوأ لأنها تلك الليلة وبجوار شيطان نعمات تمنته عابد!

ترك الباشكاتب الحارة وبقيت بدر في التفرقة الوحيدة المقبولة في منهج الحياة ألا وهو الموت. تبدلت بدر بعد موت الباشكاتب ويُقال أن جنيات الفرح غادروا المنزل للأبد, وتشتاق صبرية للمنزل ولقهوة بدر وتجمع الفتيات وفتيات بدر تفرقن مع الحياة فسافرت إحداهن لدولة أوروبية دون رجعة والثانية انشغل زوجها بسباق سياسي غير مفهوم أما الثالثة فتشبه أمها بشكل مبالغ فيه حتى أنها جعلت من زوجها باشكاتب!

وصبرية تزور بدر كل أسبوع مرة وحينما تعارك معها زاهد ذات مساء ومنعها من الزيارة أصبحت تتسلل لها كل صباح من وراء ظهره، وبدر تتحدث عن الماضي وتبكي صبرية وتسألها بدر عن عابد فتُخرج صبرية من غرفتها القديمة هداياه وحينها زجرتها بدر:

ـ غبية

ثم احتضنتها وبكت.

مات الباشكاتب بعد أن قضى ثلاث أسابيع في غرفته يبكي وظنت بدر أنه يبكي فرحاً بالضباط الأحرار وكل معاني المذياع الجميلة التي تصدح من وقتها ولكنه اكتشفت أنه مات حزناً على الملك.

وكرهت بدر الثورة بكل توابعها حتى أنها كرهت زوج ابنتها وبدلته الأنيقة وكلماته المنمقة كل زيارة عن الاشتراكية والفرد والمجتمع والحق والمستحق والتوزيع الغير عادل, كرهت صوت الطائرات وصراخ الثكالى

أعجوبة

وتحدي ناصر ولهيب المشاعر بعد عدوان ستة وخمسون, كرهت رائحة العفن المنبعثة من فم زاهد وهي تبلغه أن صبرية أنجبت له فتاة ورفض أن يطلق عليها اسم فسجلوها بدرية علها تلقف من الدنيا ما يشبه حظ بدر وحين تمت من العمر أربع سنوات، وبعد انقطاع جود رحم صبرية بلا سبب، جاءت ماجدة وزاهد هو من أطلق عليها الاسم بينما كان يتفل بقايا كوب شاي ملتهب، وبدر تخرج بالصغيرة متدثرة دون أن تستدير نحوه.

نطقها ببطء وبلا معنى.

"ماجدة".

وبعد ثلاث سنوات وحضور تتمة العنقود "**نجوى**" أيقن أن رحم صبرية لن يجود سوى بالإناث فتوقف عن معاشرتها.

وتبدل كل شيء ورغم أن الأمر حدث ببطء إلا أنه في النهاية حدث.

انتهى عصر الفتونة واختفوا واحداً تلو الآخر، والتزم زاهد المنزل بعد أن كُسرت رجله في معركة غير متكافئة فبات بها عرج ثقيل. كان يصحو في الظهيرة يبتلع اللبن مع بعض لقيمات الفول والجبن، ويرحل مع المساء نحو بيت زينب وهناك لم يعد هذا القاسي الذي يرعب خليلاته. كان يشرب الخمر دون وعي ويضرب من يتجرأ على المنزل بوظيفة حماية رخيصة ثم يعود ليضرب صبرية ووجهها النحس هي والثلاث بنات.

وانبثقت الدماء من وجهها في الليلة التي صارحته بها بالحقيقة التي كانت أن يجب أن تظل مستترة.

"ليتها تزوجت عابد".

وكان عابد قد ترك منزل الشيخ بعد أن اعتكف به لمدة ثلاثة أشهر، أهداه الشيخ غرفة منعزلة فوق سطح المنزل.. كانت غرفة رطبة يشعر من بين جدرانها بصقيع، والجدران كانت رمادية قاتمة بظلام لا يجرؤ ضوء الشمس على اقتحامه, الشيخ أراد تجهيزها بما يليق واعترضت زوجته في البداية على المال الذي سينفق وتلو ذلك على وجود غريبٍ بمنزله ولديه فتاة وتبخَّر اعتراضها مع فكرة زواجه منها. والفتاة كانتْ بعمر السابعة عشر ولها وجه خمري مستدير وأنف مفلطح، لم تكن جميلة ولم تكن قبيحة، كانت عادية الطلة تشبه أمها ونصف سيدات الحي. وكان عابد يغض بصره كلما مرت بصحنها البلاستيكي الممتلئ بحبوب الدجاج حتى حينما زعق ذكر بط ضخم وهجم على ديك شركسي عجوز فكادت أن تتحطم الحظيرة وخرجت الفتاة تولول.

- *سي عابد*

لم يفعل شيئا.. دخل غرفته وأغلق الباب وبكى!

وفي تلك الليلة جاءته عين بالمنام، كانت شاحبة وكأنما فقد وجهها كل دماءه.. عيونها مُحمرة وجاحظة حد عروق غريبة لم يشهد مثلها من قبل وتتشح من مقدمة رأسها حتى أخمص قدميها بالسواد.

أعجوبة

اقترب منها خطوة فأخرى فصرخت ثم بكت ثم تحشرجت نبرتها بصوت ثقيل يشبه أيامها الأخيرة:

ـ *حزينة عليك يا زاهد!*

وانتفض متعرقاً وعادت له من جديد صورة صبرية وساقها التي طالما غزت أحلامه, توضأ ثلاث مرات واستسلم في الرابعة وترك وساوسه. توجه نحو المسجد مهرولاً وكانت قد اقتربت صلاة الفجر وهناك قص للشيخ كل شيء الحلم وصورة عين وصبرية التي نقضت وضوءه..

وغسل له الشيخ رأسه بقربة ماء كان يحتفظ بها من زمزم وتمتم له بالرقيا وصرفه وطمأنه أن الخير قادم له.

له هو فقط!

وكان الشيخ مبروكاً، فصندوق أحذية عابد الذي رماه غير مبال. أنقذ حياة ليفي اليهودي العجوز صاحب حانوت الذهب على ناصية الشارع، وليفي كان رجلاً هزيلاً اقترب منه شبح الموت وكان هذا أكثر ما يخافه، وتقول ألسنة الحارة أنه لم يتزوج لبخله فهو لن يطيق طلبات امرأة.

بحث ليفي عن صاحب الصندوق الذي تعثر به في ليلة مظلمة، فآثر دون وقوع كتلة أسمنتية ضخمة كانت تتأرجح فوق رأسه، وقبل عابد عرض ليفي بالعمل لديه في الحانوت وكانت الخلاخيل هناك حوله تتراقص في كل ركن، لم يعد يعلم هل تلك مصادفة أن لعنة. ولكنها غادرت أحلامه وزحفت من جديد نحو الواقع.

كان يراها في منتصف الحارة تجادل بائع الخبز وتناطح الفرارجي اللص وتسحب في ذراعها طفلة لها قامة طويلة وتشبهها، ورغم قسوة

أعجوبة

السنين على أجساد النساء إلا أنها تخطها بمقصود خبيث فرغم هلاكها ببيت زاهد ورغم التشقق البسيط الذي بدأ يغزو كاحليها ورغم خلو المرمريتين من هذا الرنَّان الذي أدمنه إلا أنها ظلت صبرية التي قتلته بسهام حبها وما زالت.

ومعاشرة ليفي علمته طباعاً لم يدرسها في كنف الشيخ, فقد كانت تأتيه فتاة شقراء تشبه صبرية بل أجمل منها مائة مرة..

بل ألف مرة!

قالها لصديق يهتز أمامه من كأس الكونياك الثقيل، وضحك حتى أدمع لأنه يعلم أنها أبداً لن تؤثر فيه مثل صبرية ثم قرر أن يتزوجها.

وفي الصباح وبعدما غسل وجهه وأنفاسه من رائحة الخمر وارتدى جلباباً نظيفاً وقرر أن يزور أهلها، ووقتها جاءه الخبر فوق لسان امرأة تندب.

ـ *أخوك قتل زوجته!*

لم يعد هناك أحد لا يحفظ الحكاية, ابتلت الألسن بالسيرة حتى نضحت القلوب بالرحمة..

تراها كانت تملك صباحاً مُشعاً أم مُعتماً.

عشقها الأخ وتزوجها الآخر نكاية به, ربما أرادها بعالمه بعدما فقد عين وربما أرادها كي لا ينالها عابد.

أعجوبة

كانت تجلس فوق مقعدها الخشبي المشقق تحشر بين ساقيها طَشْت الغسيل, (إناء نحاسي واسع كانت تستخدمه النساء في غسل الملابس قديماً) تغني وتفرك بين كفيها جلباباً مهترئاً يخصه. تفركه بألم وكأنها تكره الجلباب. بل تكره صاحبه وكل نقطة عبق منه..وتواسي نفسها بالكلمات.

"حبك يا سيدى غطى ع الكل .. ارحم فؤادى يكفانوالنبى ترحمقولوا لى ايه احوال الحب .. غير البكا وعذاب القلبيارب توب على يارب .. واقول انا حرمت احبوالنبي ترحمايه اللى نابنى من حبي .. غيرُ البكا وعذاب قلبـــــكده شئ يحير يا ربى .. انا دبت والله ايه ذنبـــــوالنبى ترحم».

وهمست باسم الآخر.. لم يسمعها ولا يحتاج والكلمة ليست في طقطوقة المهدية، ولكنها همست بها لترسم دون قصد خط النهاية فوق رقبتها بسكين حاد.

هربُ زاهد وترك ثلاث فتيات كل ما يتذكرنه هو طرقات بدر فوق باب غرفتهم لتأخذهم إلى منزلها وسألتها الكبرى في أول ليلة عن صبرية فلم تجب ثم أخبرتهم بعد يومان أنها سافرت لبلاد بعيدة وبعدها بساعة أخبرتِ الصغرى أختيها أن أمهم ماتت.

أما هو فهزول يومها نحو المنزل المشئوم. نساء تلطم وجهها ورجال تضرب الكفوف وزاهد اختفى بعدما اختطف حياته مرتين.

وليلتها بكى وعاد لغرفته القديمة.. رأوه خارجاً من الحانوت راكضاً بحثاً عن صندوق أحذيته وعن ذكرياته معها. أصبح الرنان رفيق أحلامه

أعجوبة

ينام ويصحو متعرقاً بسيرته، ويصرخ منادياً اسمها حتى أفزع جيرانه.

ومرت أشهر على هذا الحال والناس حوله يخبرونه أن بنات أخيه لدى بدر وأنه يجب أن يراعي لحمه. كان قد عاد لعمله مع الخواجة وسافر الثاني بعدما باع لعابد حقه بثمن بخس في طوفان الهجرة، فتشاغل بعمله مبتعداً عن تركة زاهد حتى جاءه خبر موته في عركة بالإسكندرية فاستلم جثمانه وبكى أمام قبره هو وعين التي تجسدت من أحلامه بسوادها وشحوبها وعيونها الجاحظة ثم أخذت زاهد ورحل كلاهما مبتسماً!

وبعدها بيوم واحد وبينما كانت بدر تحيك كنزة صوفية للصغيرة نجوى تحرك الباب مع ثلاث طرقات.

ثلاث فتيات أصبحن من حقه الآن وربما هن كن حقه من البداية وأبوته كانت فرض عين.

نظرت له بدر وكانت تلك هي أول مرة تراه فيها, ورغم شحوب وجهه وبروز وجنتيه وذبول عينيه التي خاصمت الراحة إلا أنه كان يبدو قوياً.

بل أقوى من زاهد في جبروته, وفهمت ما يريده قبل أن ينطق وبعدها بساعة خرجن من الغرفة ثلاث فتيات بأثواب طويلة محتشمة وخصلات مجدولة خلف ظهورهن وأبقت عصاها من جانب كتف الصغرى نجوى وصوتها القوي رغم ارتعاش الزمن تخبره بما سيحدث، ولن يملك عليه اعتراض..

ـ *أنا حاجي مع البنات.*

أعجوبة

٥

قال هيجل أن التاريخ سيتكرر مرتين
وأضاف ماركس أن الأولى مأساة
والثانية.. مهزلة!

أصبحن فتيات.. كل واحدة منهن تحتاج إلى حُلم!

نجوى أرادت أن تتعلم الموسيقى، وماجدة بات لديها مكتبة ضخمة من مؤلفات طه حسين والعقاد ومؤخراً يوسف إدريس، أما بدرية فتريد الزواج من حسين ولد زينب!

كان شاباً هزيلاً به لمحة وسامة غائبة، أناقته كانت السبيل نحو الحمقاوات في الحي فتلك تتابعه من خلف نافذة خشبية مشققة وأخرى تبيح للمذياع ولحليم صدوح يصادف مروره وبدرية التي تتسلل نحو السطح تنفض السجاجيد.

المنزل كما هو.. رمادي بشع.

هناك كانت صبرية تبكي يومياً لمدة نصف ساعة، نفس البقعة ونفس المقعد الخشبي القصير دون مساند.. بعد أن تنهي طعام الغذاء

أعجوبة

وتلمم فوضى الذبح والبط والدجاج تجلس هناك وتبكي.. دون صوت ودون أفكار. تنتهي وتجفف عبراتها بأطراف أكمام جلباباها ثم تدخل في غيبوبة يوم آخر حتى تلك اللحظة.

ولحظة أخرى تخص بدرية.. تعدل من هندامها وتلك اللمحة اللامعة الرخيصة الثمن فوق شفتيها وتنتظر تسلله من تلك الثغرة الجانبية على السطح القديم، اليوم لديها موعد سيء.. بل أسوء موعد.. فقد رفضه عابد. والعبارة كان يود أن يلوكها بفمه.. يرفض تزويج ابنة الخائنة لابن العاهرة.

وبين حاشيتين تسلل انفعاله:

ـ *كلنا أولاد تسعة*

بدرية كانت جميلة.. كانت أكثر من ورث حسن صبرية الذي خفت نوعاً ما مع ماجدة وغاب غياب الحقير بعد وعد الزواج من وجه نجوى.

أما بدرية فهي توزيع السمن العادل في جسد كان يجب أن يسحقه هذا الصباح مع اعتراضها الوهن باسم الحب والحرب والنكسة وموت ناصر وانشغال أهل الحارة في العويل تحت سحابة نواح معلق راديو.

يومها كان الجميع يبكي سوى بدر.. بدر كانت تكره ناصر، تطرد زوج ابنتها المدعي العام بأحد كوارث التوزيع الاشتراكية وتقبل صورة الباشكاتب وتهمس في أذن ماجدة..

«**كان معه حق**».

تمسك بتلابيب عابد وتمرر بدرية بوجع من تحت أنيابه ولا تملك الحسرة سوى تسليمها لمن اقتنص عذريتها في لحظة غفلة.

أعجوبة

تزوجت دون زفاف.. ألبسوها ثوباً ببياض مهترئ لأن عابد رفض شراء جديد ونقولها لبيت أمه في غرفة علوية بعيدة عن العهر. ليلتها تركها تنام وحيدة وقضى شهوته مع أحدى ساكنات البيت وعاد بعد ليلتين يستأنف حقه. وبعد مرور عام كامل وفي ليلة مشئومة بتفاصيل تعاسة لم تكن تقصّها سوى لبدر، شقّ الصراخ سكون الحارة القاتمة وخرجت إحداهن تندب بتلعثم غير مفهوم.

نُحرَت بدرية!

إن التاريخ العسكري سوف يتوقف طويلا بالفحص والدرس أمام عملية يوم السادس من أكتوبر سنة ٧٣ حين تمكنت القوات المسلحة المصرية من اقتحام مانع قناة السويس الصعب واجتياح خط بارليف المنيع، وإقامة رؤوس جسور لها على الضفة الشرقية من القناة بعد أن أفقدت العدو توازنه في ست ساعات.

محمد أنور السادات.

١٦ أكتوبر ١٩٧٣.

كانت بداية ببيان سابع، وانتصار تلا نكسة!

يومها كانت بدر كعادتها مستلقية على أريكتها المرتفعة، تغربل الأرز بعينين حادتين كصقر وتسب وتلعن أم هانم على جلبتها الممتلئة بالسوس، صرخت ماجدة على نحو مفاجئ، وهي تقف منتصبة على حافة الشرفة تراقب انفعال الرجال في المقهى المقابل.

أعجوبة

ـ *انتصرنا!*

قالتها ببحة مؤثرة وعيناها تفرز العبرات من لاشيء وتهرس بين أناملها رواية نسيت في لحظة اسمها.

ـ *انتصرنا يا بدر*

وتلك المرة كررتها بشبه زعقة، رجفة خفيفة مرت على الحلق بنداء محبب دوماً ما كانت تقوله لها، لم تستطع ماجدة أن تذيل حروفها بجدتي، ونهرتها بدر حين قالت أمي فالأم هي امرأة لا تتكرر.

نادتها بدر فهي البدر في حياتهم وهذا يكفي.. وللمرة الثانية لم تنتبه بدر، نظرت نحوها بقسوة ثم عادت من جديد لصحنها العميق والأرز المتسخ وتلك المرة طال السباب من أنجبت أم هانم.

انتصرنا!

وكم يحمل الانتصار بعد الوجع لذة، أصبح للموسيقى معنى ولصوت حليم الصادح بعد النصر قصة حب تختلف.

تركت الشرفة والمقهى والصراخ بالنصر الذي استمر بعدها لأشهر وجاورت بدر تساعد نظرها المشتت على لملمة بقايا الأرز.. الحياة كانت تمر بأيام متشابهة، عابد يختفي طوال النهار ويعود شارداً لكوابيسه.. بدر تهتم بهن وبشئون المنزل، تستيقظ مع خيوط الفجر وتجلس مدة نصف ساعة كاملة على سجادة الصلاة منهية وردها، بعدها يحن وصول بائعة الحليب، تأخذ منها ما تريد مع نفحة مختصرة لأخبار الحي، ثم تضع القدر على النار حتى تطمئن لنقاوته، فتسكب لها صحنا ولعابد صحنا يتناولاه مع كسرات خبز باردة دون أن ينبس أحداهما بحرف. يرحل عابد لدكانه وتبدأ هي مهام البنات..

أعجوبة

كانت تفعل لهن كل شي، تنتقي الملابس على ذوقها وتعصب ضفائرهن بقسوة كادت أن تنحل رأس نجوى، تدخل عليهن وقت الاستحمام رامقة بحذر ملامح بلوغهن وتغلق الباب عليهن بالمفتاح من وقت تلك الليلة التي انفجر بها صراخ عابد.

حينها ماجدة أتمت من العمر ثمانية عشر عاماً ووقتما كانت تتقلب أرقة في الفراش وتفكر في بدرية وهي تمسك عنقها بألم لمحت خيال شبح يتحرك من أمام الغرفة. صرخت ولم تبدد صرختها نوم نجوى.. صرخت مجدداً ولكن لا شيء.. حتى بدر لم تظهر وفي الصرخة الثالثة أيقنت أنها تمر بأسوأ الكوابيس فصوتها مجرد ارتجاف صامت.

وككل ليلة كما دأبت تسللت.. راقبت تقلبه وعرقه وجحيمه في الفراش وهو ينادي باسم أمها راقبت تاريخاً لا تفهمه، وتهمة يُنكرها الجميع عن امرأة هي بطلة أحلام عمها.

أو بالأحرى بطلة كوابيسه.

تلك الليلة وتلو صراخها المكتوم ومحاولة تسللها لمحت جسد بدر يقف كحائط منيع أمام باب غرفته. هذيانه جوف شيطان وصراخه بدا كعويل وهو ينتفض مرتجفاً فوق فراشه، غارقاً في بؤرة مقززة من العرق والعار.

يبكي كطفل مُعاقب.

يبكي كما لم يبكي رجل من قبل.

ويردد كلماته التي ستبقى لسنوات لعنة أذنيها.

كلهن سيرحلن ضحايا.

كلهن سيرقصن على خط النحر.

ورغم الكوابيس تقول أم هانم أنه رجل مثالي.. وبحثت له عن عروس!

كانت تقف مستندة على جدار بنصف عين تلمح انشغال نجوى بمقطوعة موسيقية حزينة وبنصف عينها الأخرى تراقب بدر. أم هانم تصر منذ شهور على زواج عابد وتظن بدر أن لها قريبة طامعة تظن أن تحت القبة شيخ كما يقولون، مسكينة لا تعلم أن المقبة لا تحوي سوى الخلاخيل.

ورغم ثرثرة أم هانم إلا أن وجودها بشكل ما كان يمنحهن الحياة، ربما لهذا السبب لا تصرفها بدر فبدر قطعت عنهن الزيارات من وقت أن ثرثرت عجوز فوق رأس ماجدة عن خائنة ولعنة أما الأخرى فتندرت من ملامح نجوى متلاغبة بشفتيها:

ـ *تشبه بناتك يا بدر*

وبنات بدر اختفين.. عام تلوآخر فقدت وجودهن على الخريطة وإن حضرت الصغرى منذ ثلاث أعوام تطلب من أمها بشكل واضح أن تنتقل للإقامة معها والاعتناء بولديها ورفضت بدر ومن وقتها لم تعد.

الوسطى كانت الأقرب لأمها ولكن وصالهما كان أكثره على الهاتف، زوجها كان عسكرياً بارعاً نال من نفحات الثورة أكثر مما يجب، فخاض سباق السياسة بجدارة وسطية أبقته في مضمار الفائزين في النصر وفي النكسة!

أعجوبة

وتندرت منه بدر في آخر زيارة فانقطع وتوارت خلف انقطاعه زوجته، ولكنها كانت تحبها.. كانت الأقرب إليها وعادة ما كانت تُجاهر بذلك فلا ضرر من أن ينتصر الحب لأحد أبناءك.

أو لأحد أحفادك..

ينتصر لـ "**علي**".

وأول مرة رأته بها كانت زيارة دون موعد. عادت من الجامعة لتجد بدر تحتسي القهوة بأريحية جوار شاب هزيل لا يكف عن توزيع ابتساماته.

مجرد تعارف بسيط مع ثالث رجل تلمح خياله وسط جدران هذا المنزل بعد عابد وقاتل أختها.

- *ماجدة.. رابعة آداب جامعة عين شمس*

- *علي.. عاطل!*

كان أسمراً بصفاء مصري مكرر ملامحه هادئة لا تمر عليها دقيقة واحدة حتى يحتلها انفعال ساخر من كل شيء حوله.. اصطدمت عينيه بعينيها في ذاك الشيء المسمى بالشرارة، يمر به كثيراً لدرجة أنه لم يعبأ به فهناك شرارة علياء ابنة صديقة أمه وشرارة مها زميلة الدراسة حتى شرارة تلك الفتاة التي جاورها في الباص لمدة نصف ساعة.

هربت منه وسحبت يدها في تحية فاترة قبل أن تتركهم وتتوجه نحو غرفتها، مشطت خصلاتها وانشغلت بشبه راحة لتخرج بعد مرور ساعة لتجده ما زال هناك على أريكة بدر يتناول الشاي والكعك ويقص من اللاشيء حكاياه.

أعجوبة

تكررت زيارات علي.. كان يظهر فجأة بلا مقدمات فتارة تجده معهم في فطور باكر وتارة أخرى بعد الظهيرة في مرورٍ يختطف الساعات، بدا قريباً جداً من بدر، هي تقول أنه يشبهها ومصنف ككارثة أبيه وهو يردد بغرور ممازح أنه لا يشبه أحداً. هو الابن الثالث لـ مختار الرفاعي اللواء السابق بالقوات المسلحة والذي سقط من المسار العسكري المنشود بفضيحة مدوية وتم القبض عليه في مظاهرات الحرامية!

استطاع والده أن يحشره في وظيفة حكومية عقيمة ومن وقتها صنف نفسه عاطل.

وضحكت وهي تجاوره جوار سور السطح بعدما أيقنت أنها سبب وجوده وتسلله.

- *عاطل بالوراثة؟!*

وكان سؤالاً مخادعاً، يحمل لذوعة سنوات مع بدر وكراهيتها لكل ما يمت الثورة بصلة.. تركها ليجلس بأريحية على الأرض مستنداً بظهره على السور القاسي قبل أن يُخرج سيجارة رفيعة حريقها مضاد لبرودة صوته:

- *عاطل بالتبعية.. مواطن بدرجة موجود. حتى احتياج الجيش والحرب بقى غير وارد وبالتالي أنا محفور في صمت.*

التشبيه كان لاذعاً، فعلي هو الثائر بلا ثورة.. وضعه النظام على القمة لأن أباه بطل ثم استنكر دهسه فغرسه مثل المئات بدرجة متاح. مسمار دقت الاشتراكية عنقه في لوح خشب متآكل حتى صار كلاهما أجوف.

يأكل.. يشرب.. ينام.. يكسب قوته..

الأهم ألا يفكر!

ونبرته تتكرر مع سحابة الدخان الزرقاء فوق رأسيهما:

- *اشتراكية.. رأسمالية.. كلهم نفس الكدبة يا ماجدة المهم متفكريش*

وسبابته أمام جبهتها.. ثم أنفها.. فشفتيها.. وعادة ما تتحول محاضرة علي السياسية لشغف لم تفهم بدايته، هو قال لها أنه أراد أن يكرر الشرارة وبعدها بشهر قال أنه يحبها وقالها مرة واحدة بشكل مفْاجئ وبلامبالاة أزعجتها ولكنها نامت تحلم بها طوال الليل وكانت الليلة الأولى دون أرق. لم يكررها بعدها وحين كانت تطلبها كان يجيب بأنها ستصبح بلا معنى.

حروف الحب هي لحن سيفقد الشغف مع تكراره،هي أمسكت بضعف قلبه وانتهى. وكان بارعاً في الكلمات.. في السياسة ثائر وفي الحب شاعر وفي حياتها بطل، كان يكوم لها الخطابات تارة تحت أريكة بدر القاسية وتارة حين ينفرد بها وحدهما في بقعتهما الخاصة على السطح.. تحتفظ بها وتنظمها بين شعر وسرد في صندوق خاص بها لم تكن تعلم به سوى نجوى وأطلقوا عليه "**ثرثرات العاشق**".

أخفت لقاءتهما المتسللة عن بدر، ونبهت بحرص ثرثرة نجوى، كانت تعلم أن بدر تكره السطح.. تكره مأساة بدرية.. ترتعب من فكرة أن يأخذهن رجل وأرقها السؤال فعادت لـ ليالي السهر.

أعجوبة

هل سيقتلها علي؟!

أول لقاء حقيقي كان بعد اعترافه بثلاث أشهر.. وصف لها مكاناً مكتظاً بأحد أحياء مصر الجديدة، كانت كافيتريا ملونة الجدران يتكاثر عند بوابتها طلبة الجامعات وبعض الموظفين العاطلين أمثاله.. يصرخ بائع الساندويتشات بتحضير الطلب ويختطف لها علي من الزحام شريحة الجبن والبيض بالبسطرمة. يضع كلاهما على الطاولة بينهما، ويرتشف قبل طعامه الشاي؛ كي يضمن دفء كفيه، ثم يدور بعينيه وعينيها حوله متأملاً الخلل. متى حدث كيف حدث لا أحد يعلم؟ أنتجت الشوارع شبه الراقية ورش السيارات وأكشاك المياه الغازية.. تحولت المقاهي لفوضى ضوضائية تطغى على جدرانها ثرثرات المارة وأبواق المواصلات العامة, انحدر الذوق الاجتماعي بدرجة قدير جداً فانفجرت ألوان عشوائية بتوقيع ورق حائط فاخر وإيشاني أزرق بوردات فاقعة وتليفزيون تليمصر ملون أربعة وعشرون بوصة.

طموح استهلاكي مثير للشفقة.

كانت تتأمله بانبهار, أصابعها متشابكة في تشبث طفولي هادئ تحت ذقنها وعيناها تتجول دون توقف فوق ملامحه.. كل كلمة ونبرة وهمسة وحرف تؤثر فيها بشكل غريب، وكأن الكون بدأ وتوقف عنده..

هو كل شيء من لاشيء.

هو الوحيد القادر على قذفها في لحظة من بر إلى بر.

المذاق بات يختلف تبعاً لحضوره، فحليب بدر اللاذع دون سكر أصبحت حلاوته حاضرة وثرثرة نجوى مُحتملة.. أصبحت تهتم والاهتمام فضيحة امرأة، تقرص وجنتيها أربعة مرات قبل الخروج لتحيته وترفض ارتداء الجلباب الأصفر الفاقع وتستبدله بثوب قطني أنيق لجلوسٍ على الغداء واحتساء الملوخية!

سألتها بدر بعدها بيومين بملامح جامدة:

- *بتشوفي علي*

وأجابت بـ "**لا**" مُرتاعة كمن أُمسِك بجريمة، وتحجرت عيني بدر عليها لمدة نصف دقيقة قبل أن تخرج ككل ليلة وتُغلق عليهما الباب بالمفتاح منفردة بكوابيس عابد.

بعدها بيومين جاء علي بحضوره المعتاد، صوته الضاحك ومزاحه مع نجوى وبلوفر صوفي مكرر هو واحد من عشرة كلهم بألوان فاتحة.. علي يكره الأسمر بكل جيرانه وأخبرها مرة في عبث جنوني مراهق أنه لا يفضله سوى في ملابسها الداخلية!

وكانت تلك هي أول مزحة من نوعها بينهما، صادفت منها محاولة ابتعاد عنه وجمود قاسي الترحاب من بدر.

ولم يحتمل فابتعد.. غاب عنهم شهر كامل فظن جميعهم أن الشرارة خفتت إلى أن فجرتها هي بظهور مفاجئ قرب مقر عمله.

أعجوبة

كان وقت الظهيرة وخروج الموظفين متقطع حسب موعد اتفاقهم مع الدفترا! وقف على جانب الرصيف يستنشق سيجارة ويراقب الدنيا بمزاج ساخر، عيناه لم تكن حاضرة مع الطريق أو حركة الناس وصوت طقطقة أواني الفول الصاجية من عربة عبد المنعم عديل الساعي. كان هناك بمنزله والطاولة الثقيلة من خشب الزان الفاخر وسكون مضغ الطعام المثير للضجر.. الفاكهة تلو اللحم والحلوى جوار الشاي بأقداح خزفية راقية قد تلحق بها أمه ركب الهوانم الجدد.

وأمه كانت تعلم بزياراته المتكررة لبدر، تنظر له بحنو وتضمه مستلهمة عبق أمها. تزيح اللحظة بأناقة وتنشغل بأخويه ومستقبل آمن في ظل سياسة رائعة من الخبز والسلام، ترمقه بقلق، ثم تختفي في ركب يوم شبيه بما سبقه.

حتى اختلف المنزل فانفجر، أحيل سيادة اللواء على المعاش وانتهت مدة خدمته فارتدى "**الجلابية**" كما يتندرون وأيقظ عفاريت البؤس فوق رؤوسهم جميعاً وأول رأس كان هو فتلقى فرماناً عسكرياً جائراً بالتوقف عن زيارة بدر.

وهو مثله مثل الشعب في وجه السلطة.. يثور ويتمرد ويرفض وينتفض ثم..

"يسمع الكلام".

حتى ظهرت هي مجدداً وكان إغواء الشعوب الحرية وإغواءه.. ماجدة.

أعجوبة

لم تكن جميلة.. أي أن ملامحها لا تحوي تلك الفتنة المبهرة التي قد تثيرك لالتقاط صورة. بشرتها ملساء تميل نحو بياض معتدل وشفتيها لهما حضور وردي ممتلئ باتزان، انفعالها دوماً حزين حتى حين تضحك أو تقتحمها تلك العاطفة المشربة باهتمامه تظل هالة الحزن حاضرة وكأن دونه لن تكتمل اللوحة.

هي ليست جميلة ولكنها مُسكرة.

ببساطة.. لها تفاصيل الخمر.

جاورته على كوبري قصر النيل.. تهرب بأناملها من التقاط يده وتتصنع مراقبة النهر، سألته في براءة مباشرة:

ـ *ليه بتكره الثورة؟*

وأجاب على الفور، بديناميكة هادئة:

ـ *أنا ثائر بالفطرة*

تطلعت إليه بكامل ملامحها ومررت سؤالاً آخر وإن كان على هيئة جواب.

ـ *بدر بتكره الثورة*

ولا تعلم هل هي تبرر أم تفسر بدر في عينيه، أم أنها تبتعد عنها مع كل خطوة نحوه..

لم يجب في حينها، مر بعينيه على الطريق في لمحة خاطفة قبل أن يوقف طالبة قصيرة القامة ويطلب منها في أدب ورقة بيضاء. ثبتها على السور الحجري بإبهام يده اليسرى وطلب منها أن تفعل المثل قبل أن

أعجوبة

يُخرج قلماً من جيب بنطاله وبدأ في نثر خيوطه، رسم شكلاً بيضاويا تتساقط منه خربشات كثيرة وكأنه سحابة من الفوضى. أشار لها في ثقة محاضر وجد تلميذته الوحيدة ثم قال بصوت جاد:

- *أي ثورة في الدنيا بعد ما بتحصل بتمر بمرحلة ارتباك، أنا بسمي ده اضطراب القرارات الحماسي*

- *وإيه الفرق بين الحماس والاضطراب؟*

سألته وهي تشير نحو خيمة الخربشات التي صنعها لتوها، بدت كلها مضطربة وكأن الحماس والاضطراب ما هما إلا فخ أسقط الاختيار.

أما هو فكان جوابه دافئ، استدار نحوها بكامل جسده ونبرته تحمل مسؤولية تنويرها.. أو ربما هي مشاركة.. مشاركة أفكاره هي بداية مشاركة نفسه.

- *الفرق كبير يا ماجدة مثلاً الوحدة مع سوريا كانت حماس.. حرب اليمن كانت اضطراب*

- *والنكسة؟*

- *النكسة هي الغطا اللي كشف العري.. الاثنين جيش وشعب!*

- *ودلوقتي يا علي؟*

ونظرتها حملت استنجاداً خاصاً، ربما انتهت الثورة.. انتهت النكسة وانتهى النصر وجميعهم يركضون جوار وهم تاريخ يُسرد..

حرية.. اشتراكية.. شعب.. قيادة.. حرب.. سلام.. انفتاح!

فـ التاريخ ما هو إلا مجرد مرحلة، حقائق قابلة للمحو أو التوثيق..

أعجوبة

ابتسم لها بكامل ملامحه ترك الورقة لتتطاير حتى التهمتها الرياح واحتل أناملها ليجذبها خلفه، مشي أقرب لركض والتقاء بدا كهروب..

استدار متشبعاً في لحظات قصيرة من ملامحها.. أيقن أنه اشتاق لتلك الملامح.

أن فرامانات سيادة اللواء لم تفعل شيئاً سوى أنها أعطشته أكثر.

قدم له الحرمان ففهم نعمة الارتواء وتفاصيله، ولم تزد عباراته عن حروف مبتورة نهايتها واحدة..

ـ *دلوقتي بحبك*

أعجوبة

أعجوبة

٦

الوهم هو النشوة الموجعة!

لهاث.. صرخة امرأة يعرفها.. ثم جحيم مستعر فوق عنقه.

استيقظ في حركة واحدة لينتصب على الفراش وجحوظ عينيه يتخبط في الظلام. ولم يكن بمنزله لا.. كان هناك جوارها بالمقبرة التي ترك فيها عين، رأسه التفت بمقدار دورة كاملة فرآها خلفه تضحك بعنق نصف منحور وتحرك رأسها في جزع..

ـ *أنا خايفة يا عابد*

يحاول أن يمد يده نحوها ولكن الفزع يمنعه.. يعود نحو الوراء.. يهرب.. يجد نفسه بمنزل شيخ الجامع وابنته.. يقترب منها.. يعريها ويعري نفسه وثقة الشيخ تولول منحورة..

ينتهي منها ثم يوقن أن جسدها أصبح بارداً، وكأنه عاشر لتوه جثة، ولكن جحيم الأنفاس ما زال باقٍ على لهيبه وحين يغيب ظلام النشوة ويفتح عينيه على وجهها تخترق الصرخة ضلوعه وجدران حلمه.

ـ *صبرية*

أعجوبة

كانت نجوى فتاة فقيرة الجمال، حين تندرت عليها عجوز مرة وشبهتها بملامح بدر لم تغضب.. بل أنها جلست جوار ساق بدر بعدها بيومين وهي تلتهم الصحن المتبقي من ملوخية الأرانب التي أعدتها بدر على الغذاء، وتضم جسدها بجلبابه المرتفع العنق بكلتا ذراعيها في وضع القرفصاء تغني.. دندنة خافتة بلحن مكرر سمعته صباح اليوم في البرنامج الموسيقي وعقب المذيع أنه لحن كان يتغنى به ناقلو الموتى في القرن الثامن عشر.. ضحك ومازح حضوره فلقبه بلحن الموت ووجدت نفسها تدندنه كل ليلة!

ـ *بدر..*

ونبرتها خرجت فاترة دون معنى.. قتلت اللحن وذكرى المرأة الثرثارة ومرور عشوائي لعابد لم يكن معتاداً في وسط النهار.

ـ *قتلها ليه؟*

وكانت تقصد بدرية، والعين تغيب نحو الأخرى.. تغيب ثم تنتفض في جحوظ فتي وتعيد الكرة بشفتين أكثر إصراراً ونبرة غير خائفة!

ـ *قتلها ليه!*

وبدر لا تجيب.. بؤبؤيها ارتكزا فوق تفاصيل كنزة صوفية تُعيد حياكتها وأصابعها تتحرك برتابة محفوظة قبل أن ترفع وجهها بعد دقائق وتضع السترة على صدر نجوى في قياس أمومي جاف لتعود لعملها.

ونجوى تعود للدندنة.. للحن..

ولهمس مكرر جوار القرفصاء وأريكة بدر وخيال عابد الذي بات شبحاً هزيلاً يوماً تلو يوم.

أعجوبة

ـ *أنا مش هاموت زيهم!*

مرت أكثر من سبعة أشهر، عابد اعتاد كوابيسه فعادت له قوته. أصبح يقضي بالدكان أغلب يومه ويعود وقت النوم وربما بعده.. بدر هي الوحيدة التي كانت تبقى على استيقاظ وحين تراه تنظر نحوه في كراهية مغلفة بشفقة، تسحبه نحو غرفته وتخلع عنه ملابسه ثم تحضر إناءً بارداً تلقيه دفعة واحدة فوق جسده كله فيرتعش ويبكي ويغيب وعيه مع تلاوة بدر بآيات قرآنية كان يحفظها وخاتمة لم تفلح في وأد أحلامه.

ـ *سيبيه يا صبرية!*

تقولها بدر في تعب، ثم تأخذ ملابسه المعبقة بخمر رخيص وتلقي بها في إناء الغلي.. تأتي أم هانم في الصباح وتفركهم بالصابون وتدعو عليه بصوت صادح:

ـ *يهلكك يا عابد.. خمرا يا ابن الشيخ*

وتراقبه نجوى راحلاً بجلباب آخر نظيف في لامبالاة مشرقة، يتناول إفطاره في شهية.. فول وخبز وبيض مقلي وعسل نحل وقشدة ثم يغادر ويعود بنفس الحال.. يرتعش ويهذي وتنظفه بدر وتستيقظ على رجَّة صوته في أركان المنزل..

سامحيني يا صبرية!

أعجوبة

عشقها.. فنسيهم وكانت المتعة..

جواره تتأبط ذراعه في حرية، وتترك لهواء إبريل حرية التحكم في خصلاتها، تختبر الحياة من رؤية عاشقين وتوقن أن للدنيا حولها مذاقا مختلفا. نجوى تقول أنها أصبحت أجمل.. كل صباح قبل أن تتوجه لجامعتها تنظر في المرآة وفي وجه نجوى وتركض هاربة من بدر.

الحب فضيحة وإخفاءها واجب.

هكذا علموها وهكذا فعلت بدرية حتى نحرها حسين مرتين!

نظر نحوها فلاحظ ذاك الوجوم الذي يحتل ملامحها في احتلال غاشم كلما كانت معه، سألها وكانت حروف مكررة:

ـ *عينيكي فيها خوف يا ماجدة*

وجاوبته بصدق لأول مرة:

ـ *أنا عايشة في الخوف*

كان يعلم أنها تغوص في هوة ظلام غير مفهومة.. هي، وبدر، ونجوى.. كره عابد.. بل كره طلته وطلب منها من قبل أن ترحل، فنظرت نحوه في حيرة من لا يملك خيار.

سأل بدر فصرفته ومارست عليه سلطة الجدة بأمر منع حضوره.

توقف في منتصف الطريق واستدار ساحباً أحد خصلاتها برقة من ربطة شعرها ليتخللها بإصبعه في حنو رائق وازى تأمله لملامحها:

ـ *خايفة وأنت معايا*

ـ *حتفضل معايا؟*

سؤالها بدا كشرودٍ حمل الكثير من الوجع، عيناها تتشبث به

أعجوبة

وقلبها يئن.. يخاف..

استدارت مبتعدة عنه وقد أحاطت جسدها بكلتا ذراعيها تستشعر برودة قارصة تمكنت منها بشكل مفاجئ، واقترب هو ليحيطها بدوره ممرراً الدفء ثم أدارها نحوه، وابتسم باتساع قبل أن يغني!

هكذا ببساطة سرد حروفه ولحنه والمارة يتناظرون دون اهتمام.

"طول ما القلب صافي.. بحر العشق وافي، وكل عذاب الدنيا هيروق بكرة لينا».

وترجرجت ملامحها في حركة واحدة.. وجدت نفسها تبكي.. تتشبث به أكثر دون أن تنبس بشفه.. تستدعي ملامح نجوى.. وصمت بدر..

«بين أيوه ولا.. الحب بنلقاه.. ما أحلى الحياة بأصحابنا وأهالينا».

تستدعي مالا تفهمه.. تستدعي فقدانه قبل أن يبدأ.. وتتشبث بباقي لحنه وهذيان نجوى.

«لو نروق هيجينا كل ما تمنينا».

وقالها وهو يدفئ وجنتها بكامل كفه.. يقترب وبالهمهات لا يُبالي.. يتجاهل فرامانات أبيه وشهقة أمه حين أخبرها بالأمس فقط أنه سيتزوجها.

لم يكن يعلم أنه لتوه وضع بداية فراقهما، ولم يكن يعلم بآخر حروف هذيان نجوى..

- *علي مش هايقتلك!*

كانت حُسن امرأة هادئة الطباع، حين طلبها مختار من الباشكاتب كان عمرها لا يتجاوز التاسعة عشر.. رشحتها له صديقة مقربة من عائلته وتم الاتفاق على كل التفاصيل بعد زيارة واحدة، لم تكن جميلة ولكنه أخبر أمه أنه لا يحتاج للجمال، بلفظ آخر هي مناسبة تماماً.

مختار كان رجلاً جهوري الصوت.. ضخم البنية واسع الشهية اعتادت على ترتيب مائدته بأفضل الأصناف كما علمتها أمها وكما راقبت اهتمامها بالباشكاتب، أنجبت له ثلاث رجال آخرهم علي الذي فشل في الالتحاق بركب الميري فبات مدنياً خائباً!

في ليلة جوها معتدلاً كانت تجلس جوار النافذة وتطرز مفرش دائرياً بخيوط ذهبية وفي الخلفية صوت التلفاز على إحدى حلقات مسلسل تليفزيوني مكرر. دون انتباه جاءها بقرار كان سابقة..

يريد أن يتزوج ماجدة!

وظن أن شهقتها راديكالية.. رأسمالية.. اشتراكية مرحومة على شفا ثورة.

شهقة توازي هلع امرأة أفسدت طبق الحلوى المخصص لاستقبال الضيوف، أو مصيبة زوجة استدعت خيانة زوجها.

شهقة متجنية.. شهقة مبالغ فيها.. شهقة هي وجه أبيه الغائب في تطور عبثي من لواء لسابق لشريك في الباطن في طرح استثماري يقوده وزير.

شهقة البؤرة الضحلة التي غرق فيها رغماً عنه، فهم أهله.. وهم المجتمع.. وهم المنبوذين وفي وقت ما الصفوة!

وحضر نفسه لمعركة أساسها الغنى والفقر.

الثورة والشعب.

السلطة والعامة.

حضر عباراته الرنانة وقال أن هذا وقت ثورته فكل ثائر هو مشروع ديكتاتور وحين ينال سلطويته سيأتي آخر ويثور ضده وهكذا ستظل دائرة العبث مستمرة حتى ننجح في فناء بعضنا فنتركها في سلام ونغادر.

وصرخت حُسن أول يوم.. وبكت في الثاني.. وبالثالث عرف أنها لم تخبر أباه، هي لأول مرة وبعد انقطاع سنوات زارت بدر وطلبت منها أن تمنع عنه الملعونة.

المأساة كانت في البداية حكاية!

يُقال أن غرفة عابد ليلتها كان دون كوابيس، عاد بنشاط فحل منع عنه صاحبه الطعام فأصابته صحوة. لم يحتسي الخمر ولم تزره صبرية. استيقظ صحواً فطلب من أم هانم صحن لبن كامل تناوله بدسمه وقشدته مع كسرة خبز واحدة ثم غادر لدكانه.

أما بدر فاستيقظت دون أن تنبس بكلمة.. رمقت صحوته بنظرة قاتمة، ثم صلت الضحى وتناولت كسرات الخبز بماء بارد، وعادت للنوم مجدداً، وحين تسللت إليها نجوى في خوف قالت بصوت خشن بدا وكأنه هارباً من القبر:

ـ *لما الضيفة تيجي!*

بعدها بساعتين ونصف حضرت حُسن وكان الوقت قرب الظهيرة.. فتركتها بدر وذهبت لتصلي قبل أن تسألها في لذوعة إن كانت ما زالت تفعل ولم تجبها ولم يكن بحقيبتها المنتقاة غطاء رأس مناسب حتى الثوب كان قصيراً معتدل الأناقة بطول أرستقراطي مناسب لحقبة سبعينية كادت تنتهي.

أنهت بدر صلاتها ببطء ثم جلست متربعة فوق أريكتها قبل أن تسحب صينية نحاسية قديمة بما عليها من معدات القهوة والبن المحوج، فأعدت لنفسها قهوة بمذاق مسكر ولحُسن آخر به مرارة.

ناولتها القدح بيد وبالأخرى سحبت منديلاً قديماً مطرزاً استنشقت عبيره قبل أن تُثقل نبرتها بالسؤال:

ـ *مختار بعتك*

ـ *علي!*

وجواب حُسن كان مباشراً.. متحجراً كتحجر أناملها فوق قدح القهوة القريب من مذاق عالمها كما تخبرها بدر.

أو كما الحقيقة..

سألتها.

ـ *مختار؟*

وقالت..

ـ *علي!*

أعجوبة

ثم بكت.. تصدع تحجرها المثالي دفعة واحدة، نسيت مختار.. بل نسيت ولداها الآخران وكل ما كانت تفكر به الثالث. استقامت وتركت مقعدها الخشبي والقهوة التي لم تقربها وجاورت بدر على الأريكة، أمسكت بيدها المتغضنة وطفقت تدور بعينيها في ملامح وجهها التي غابت عنها لسنوات.

غابت مع بنات صبرية.

وعالم صبرية.

ولعنات صبرية التي ستلتهم الآن ابنها.

ـ لا

وصرخت أم زعقت فالفارق لم يكن جل، استقامت مجدداً وهي تراقب ضوضاء الحي وثرثرته من نافذة قريبة ثم عادت نحو بدر بنظرة مُهاجمة:

ـ *ابني لا*..

ونبرة تلو نبرة ارتجافهم قوة برغم ما مرروه من ضعف.

ـ *ابني مش هاتطوله صبرية وبناتها*.

وفي وسط الحروف كان تلوم.. تؤنب من أنجبتها وتمضغ في حوارها نصف العبارات عن تلك الجلبة التي لم تكن تعنيهم. فلتحترق بدر بتركة صبرية وزاهد أو تلعنها السماء لا تبالي. ولكنها لن تقدم ابنها.

وتركتها بدر ترحل.. ببطء.. راقبت منها كل خطوة وكانت تعلم أنه لن تكون هناك التفاته، راقبتها وهي تدعو الله ألا تعود مجدداً ولا يعود هو أيضاً.

أعجوبة

الخرافة تبدأ بحكاية وتلك ليست المعضلة. المشكلة في من سيحققها!

كانت تجلس أمام مرآتها.. نجوى تمشط لها الخصلات ببطء ثم تكومهم مرة واحدة في جديلة، تغني.. بل تدندن ذات اللحن وتقبض فوق عنقها بقسوة وكأنها تعاقب نفسها على مدار سنوات مرت.

رفعت يُمناها في حنان رابتة فوق قبضتها.. قربتها من شفتيها في بطء، ثم قبلتهم في حنو وعيناها تطلب منها أن تُكمل، كلتاهما تسترجعان ذكرى ذاك الصباح القاتم حين حضرت حُسن.. حين همست في أذنها نجوى بقرب ارتداء ثياب الزفاف. ضمت أناملها ونبهتها.. قالت لها أن تهرب.

أن تبتعد عن منزل زاهد، عن كوابيس أخيه وتاريخ صبرية.

أخبرتها أن أحمد لن يقتلها وكانت محقة سوى في شيء واحد.

هو لن يتزوجها من الأساس..

- *نهرب*

قالتها له في وجع.. بل أشارت في يأس نحو غرفة خشبية جوار السطح وأغمضت عيناها في بيع مستحل باسم حبها له تقول خذني ولا أبالي.

أعجوبة

ابتعد.. ضم ذراعيه وكاد يصرخ.. أراد أن يحارب فاكتشف أن السلاح كذبة.. أراد أن يثور فاكتشف أن ثورته خُرافة!

أرادها فاكتشف أنها مستحيلة.

ـ *خايف؟*

وقالتها وتمثاله يسقط، هو أخذ فأساً وحطم تمثال نفسه صخرة صخرة، وبكى.. شاهدت دمعاته تتساقط في نهاية مخزية لقصة ظنت أنها تبدأها، ما الفارق بينه وبين حسين.. نحر حسين بدرية في لحظة غدر ونحرها علي في لحظة خذلان.

وابتعدت فاحتل رسغها وقتام عينيه تناقض هروب نظراته، ولذوعة لسانه تهديها وتهدي نفسه صراحة موجعة:

ـ *ضعيف*

ـ *قدام مين؟*

ـ *الكل*

ـ *أمك.. أبوك؟*

ـ *وبدر*

ـ *بدر رافضة!*

ونطقتها مذهولة.. تحجرت ملامحها ككل ومرت عليها اللحظة كعام نسيت فيه يشأنه.

كررتها:

بدر!

ومجدداً بصرخة.

ـ *بدر!*

ومرة أخرى في تكذيب زاعق للحقيقة:

ـ *بدر..*

أوجعت قلبه أكثر مما يحتمل من وجع، ضمها فرفست، وركلت وفشل حجمها الصغير من الهروب من عناقه.. استند بذقنه فوق رأسها وزفرته الحارة تشكل لها سحابة. ضمها أكثر وصوته يُجاهد:

ـ *كلهم مصدقين.. كلهم عايشين في الوهم.*

ورفعت بصرها نحوه في توسل:

ـ *وأنت!*

ضم وجنتيها بكلا كفيه ثم طبع فوق شفتيها قبلة عابرة.. كانت أول التقاء شفتين بينهما بما يحمله من شغف وملوحة وفقدان على الطريق.

ووعد كان أضعف من أن يفي به.

ـ *لازم أكسر التابوه.. لازم أكسر وهمهم يا ماجدة*

ولم تفهم.. كل ما فهمته أنه سيعود.. أنه سيحطم خرافتهم ويختطفها على جواد من فضة لصنع خرافة جديدة. ورحل... ولم يعد.

وعلمت بعدها بسبعة أشهر ونصف أنه تزوج، أو بالأحرى قتلها دون نصل فوق دعوة زفاف وردية باسم علي الدين مختار ووجيدة أحمد البهي.

أعجوبة

٧

شاكر ريحان العطار

تتعلق الأعين بمنزل الحاج ريحان، الرجل الذي أصبح أيقونة الرجولة بالحي..

يتمتم حاقد:

ـ *بفلوسه لولاها ما كان*

ويتندر آخر:

ـ *يا ريتني مكانه*

هو رجل قارب على الخمسين من العمر ويزيد, بشرة بيضاء محمرة بنكهة إنجليزية ويقال أن جده كان جوني قديم ويكره هو المكر خلف العبارة ويتوعد كل من ينطقها ولكنه رجل مجهول الأصل بحق فقد هبط عليهم بليلة مظلمة ليبتاع حانوتاً كان من قبل لمالك إنجليزي هرب مع الراحلين وفي أقل من خمس سنوات ازدهرت تجارة الحاج وأصبح من علية القوم بحي باب الشعرية.. تزوج من هنية ابنة شيخ الجامع وأنجب منها أربع بنات وذريعة من أجل زيجة أخرى.

أعجوبة

ليلتها بكت هنية على وسادتها حتى الصباح ثم انتصبت لتتجه صامتة نحو دورة المياه وتسكب فوق جسدها الكيروسين وتشعل النيران رغبة في احتراق, ولولا خادمتها الودود لكانت في خبر كان وبكى ريحان تحت قدميها وتوعدها ثم قبل رأسها واعتذر لها وتزوج في النهاية من عدلات أخت صديق عمره.. وكان الصديق هو من زرع برأسه الفكرة والعزوة والصبي والمال والنعيم الذي قد يتبخر في سراب. ولم تكن عدلات ذات جمال فبجانب هنية هي شمعة دون ضوء وفاكهة سرقت منها هنية المذاق، ولكنها كانت غنوج.. تلهب ليله برقص وغناء لم يظن أن له وجود بغرفة نومه وأيضاً هي ولود أنجبت له بعد تمام تسعة أشهر حسن وحسين ضي عينيه كما اسميها وظل يدعوهما حتى وفاته.

أصبح لريحان ستة أبناء وازدهر الحال أكثر وعمت البركة البيت مع قدوم التوأمان. كانت عدلات تتباهى بوجه هنية أن الرزق يأتي مع البنات ولكن الولد هو من يحفظه، وستنجب له المزيد.

ولكن لم تنجب عدلات المزيد، فبلعنة هنية كما ظلت تردد ربطت رحمها الداية، وعانت لسنوات من أجل طفل آخر حتى وافق ريحان أخيرا بزيارة طبيب أخبره عن مضاعفات سيئة أصبتها تلو الولادة والحمل مرة أخرى غير وارد وبكت عدلات ولا يعرف ريحان سر هذا الكمد الذي تحياه.. ألم تنجب وانتهى الأمر وفاز هو بما يتمنى؟.

كان يردد الحمد الله، وتبتسم هنية وتغويه ليبقى بغرفتها أياماً علها تنال مولد الصبي وتكيد بعدلات..

أعجوبة

وهكذا استمر الحال.. بهجة الأبناء وصراع النساء حتى صرخت هنية في ليلة قالوا أنها سبقت شرارة ثورة وأنجبت في منصف أكتوبر لعام واحد وخمسون خامس بطونها والذي طال انتظاره.

«شاكر».

ويقص شاكر في ملهى النجوم الليلي وأمام كأس نصف ممتلئ من الويسكي الباهظ الثمن أن هنية دللته حتى انتهى الدلال وأن ريحان نسي بشأن حسن وحسين وطرد عدلات فوجهها أصبح مثل البومة وهي من وضعت الزيت على الدرج لتكسر رجله.

ـ *فتى مدلل يا عزيزي.. أنا فتى مدلل*

وكان يسخر من نفسه، يمرر أنامله ببطء في خصلات شعره المستطيلة ويبتسم بامتنان عابث قبل أن يتجرع ما تبقى من الويسكي، يهرس سيجارته في مرمدة قريبة ويستدعي إلحاح أمه في مسألة زواجه..

يتذكر فراش أبيه الراحل الذي أنهكه المرض ونداءه الباكي على ولديه الذي تناقلت الأخبار عن رحيلهما في حادث مجهول سحب ما تبقى من عقل أمهما.

ـ *سياسة؟*

ويسأله صديقه.. ينفث جوراه تبغاً مهترئا، ويتحدث في كل مباح فالتاريخ الآن يحمل للجميع هُدنة هادئة. انتهت المعمعة بموت السادات والآخر تحمل ملامحه أريحية نفسية ثابتة.

أعجوبة

أو كما يكرر الشاب الآخر الذي يجاورهما، ينادي على النادل في انفعال هازئ:

ـ *الشعب تعب من الدوشة..*

ثم يستدير لشاكر.. ولصديقه.. وللملهى كله وفي يُمناه كأس كونياك رخيص:

ـ *بس دوشة إيه بقة.. الحرب ولا السلام*

ثم يضحك وحده.. يضحك حتى تدمع عيناه ويشير لهم بالكأس في تحية ساخرة قبل أن يعقب بنبرة متلاشية:

ـ *إحنا كمان.. إحنا مجرد دوشة!*

ويهشم كأسه ويرحل.. راقبه شاكر باهتمام تبخر بعد لحظة وهو يتوجه إلى سيارة نصف فخمة ويهرب بها مترنحاً، يوقفه ضابط برتبة نقيب على أحد لجان الطريق الرئيسي ويتراجع سامحاً له بالمرور حين يعلم رتبة والد زوجته..

«**أحمد بيه البهي**».

تستقر عيناه عليه لفترة رثة من زمن هو اختاره، ثم يعود لسيارته بخطوات لامبالية.. يطفئ المحرك والأنوار ويسحب من التابلوه الأمامي صورة.

يتأمل ملامحها في وجع ثم يقربها نحو شفتيه في قبلة هي شرعه الوحيد قبل أن يسحب قلماً من الحبر الأزرق ويخط اسمها عليه قبل أن يغافله الزمن فينسى!

أعجوبة

قبل أن يتحول لظل شبح، ويفقد حتى الذكرى..

كتبها بخط مرتعش.

«ماجدة ١٩٨٤».

أنتِ الخطيئة التي سيرتكبها أحدهم.

أنتِ بطلة المُشاهدة!

صرخت نجوى مجدداً.. شهقة توازي ثانية ولحاق بركب آخر وامرأة تُنحر على التلفاز بشكل عبثي ليبتسم السفاح ويمسح نصله في انتصار جديد!

استدارت نحوها ماجدة ولأول مرة تنتبه.. آخر مرة شاهدت بها التلفاز كان ليلة انقطاع البث. منصة وموسيقى عسكرية وقُتل السادات.

لا تعرف لمَ استدارت حينها نحو بدر، كانت تكرههم.. تكره ناصر والسادات والثورة وتكره مختار وتشتاق لـ حُسن.

ودت أن تسألها.. هل كانت تكرهه أيضاً؟ أم أنها أحبته لدرجة تطلبت حمايته منها!

قُتل السادات بعد أن انتقل من وهم الاشتراكية لوهم الجماعات الدينية وسحب وراءه شعبه، كان يعلم أنهم عاجلاً أم آجلاً سيبحثون عن وهمهم الخاص فمرر لهم ما يناسب مزاجيته.. فنحن لا نحيا دون الوهم.. نختاره كي نبيح خوفنا فننجو أو نبرر تعاستنا فنرتاح.

أعجوبة

رقدت في فراشها بشبه نوم وعيناها تتحجر في الأرق المعتاد خاصة مع عودة كوابيس عابد، بدأ الأمر مجدداً منذ عام حين دخل عليهم بهيئة هزيلة وبعينيه شقاء عمر كامل.. خصلاته بدت وكأن المشيب نال منها دفعة واحدة ووجهه اختلفت ملامحه فأظلم وكأنها نهاية كونه.

وصرخت بدر واحتضنتهن لأول مرة في ولولة مُتعبَة:

ـ *أعوذ بالله من الشيطان الرجيم*

وبكت وظلت ثلاثة أيام تبكي.. وأحضرت شيخاً ضخم الجثة قرأ فوق رأسه ربع القرآن وفوق رأسيهما الربع الآخر واستيقظ عابد من منامه بوجه مرتاح يسألها عن صبرية.

واختلفت الكوابيس فلم تعد تحمل صراخه، كان يستقيم فجأة فلا يعرف الرائي أهو ميت في أوهامه أم حي، يتجه لخزانة ضخمة جانبية ثم يفتح درجها الأخير ويخرج منه رناناً ذهبياً.

ـ *شوفتي يا صبرية.. عيار ٢١ صافي*

وبيوم تالٍ.

ـ *دهب بندقي زي ما طلبتي*

وبثالث يضحك حتى احتل شيطانه الجدران.

ـ *ده فالصو.. علشان أنتِ فالصو يا صبرية!*

ـ *كده يا سي عابد*

ـ *زعلتي مني يا ست البنات*

ـ *ست البنات اتدبحت.. دمي في البيت يا عابد*

أعجوبة

ومرة أخرى بصوت أكثر خشونة.

- *دمي في البيت يا عابد..*

وانتفضن ثلاثتهن على الصوت الأخير في فزع أنبت عشر شعيرات بيضاء في شعر نجوى وحطم آخر ما تبقى من صمود بدر. صرخت الأولى ولطمت الثانية وبقيت هي في مقدمة الحجرة تراقب انتفاض جسده.. ظلت متحجرة لنصف دقيقة قبل أن تسقط على وضعها متكومة في جلسة تشبه صمود الجنين برحم أمه ضاربة برأسها الجدار من الخلف وتردد دون وعي كلمات صبرية.

«دمي في البيت يا عابد».

«دمي في البيت يا علي».

والهمس الأخير لم يسمعه أحد سوى نجوى.. أو هكذا ظنت، وقبل أن تُفكر انتهى المشهد بسقوط بدر.

نجوى تُحب الرقص، ولكنها لا ترقص. اعتادت مشاهدة الراقصات في التلفاز تراقبهن بعيون نهمة وتحرك رأسها معهن في لحن أنيق.. كانت تحب كاريوكا وسامية جمال، وحاولت مرة واحدة حين كانت بعمر الثالثة عشر تقليد نعيمة عاكف وضربها عابد.

بعدها أيقنت أن الرقص لا يُناسبها، لم تغضب من عابد بل كانت أكثر من يهتم به، فبعد سقوط بدر وهروب الوعي منها كتساقط مياه خبيث من قربة مستهلكة، علموا أنه تخلى عن كل ثروته من الذهب وابتاع بها

أعجوبة

الخلاخيل وأراد أحدهم استئجار الدكان فوافقت نجوى ليصبح لهن شِبه دخل. تولت نجوى أمور المنزل، تستيقظ مع خيوط الفجر.. تغلي الحليب وتبلل به كسرات الخبز، ثم تفتتها في صحن واسع ساكبة عليها السائل ودسمه، تتوجه نحو غرفة بدر، تأخذها لدورة المياه وتحممها وتمشطها ثم تختار لها جلباباً نظيفاً وتجمع شعرها في ربطة هادئة تحت وشاح زيتي غامق وتناولها الطعام بدفئه وتجيب السؤال قبل مجيئه:

ـ *أيوة أنا صبرية يا خالتي*

تتجه لعابد.. تنفض فراشه من الخلاخيل والعرق وتخلع عنه جلبابه المتسخ وتخرج له آخر بلون أبيض، يرفض الخبز الرطب ويطلب آخراً جاف يتناوله في قضمات متقطعة ثم يغرق جوفه بالمياه، يسألها عن ماجدة وعن بدر وعن صبرية وتجيبه هي بلامبالاة عبثية:

ـ *كلهم ماتوا!*

كانت قوية البنية، واسعة الإدراك، ربما لهذا تحتملهم.. جلست أمامها ماجدة على مائدة الغداء وكانتا وحيدتين، عابد حبيس غرفته ولا يخرج منها سوى للاغتسال وبدر أخذوها منذ يومين. جاءت حُسن ومعها ابنها الأكبر وانتظر هو بالسيارة كجبان اصطنع المرض ليلة الحرب.. لم يصعد.. لم يجرؤ على مواجهتها.

آخذوا بدر وآخذوا معها جزءً منها.. وسُباب نجوى الذي طالهم حتى غادرا البوابة. علمت أنه أنجب ولد وأسماه أحمد يقولون أنه الآن في شهره الثاني..

«**أحمد علي الدين مختار**».

أعجوبة

يعيش بشقة صغيرة في أحد أحياء مصر الجديدة مكتوبة باسم زوجته، ووفر له أخيه الأكبر فرصة عمل مجدية بالخليج ولكنه رفض. تقول عنه نجوى أنه مسكين وترقرقت بعينيها عبرات فأبعدت الصحن الذي لم تقربه من الأساس.

- *مسكين*

كررتها نجوى بلامبالاة ثم تابعت التهام طعامها، دقية اللحم بالبامية وأرز أبيض لا يجيده غيرها.. أم هانم من علمتها الوصفة فهي أفضل من خاصة بدر وستبقي الحساء لليوم التالي لتعد عليه ملوخية.

- *نجوى!*

وصرخت بها في بحة مهتاجة، عيناها مفتوحتان على آخرهما وقبضتها تنشب مفرش الطاولة في عنف، رفعت نجوى رأسها ببساطة:

- *أيوة مسكين.. ضعيف*

- *خاين*

- *محبش غيرك*

وانفجرت ماجدة.. انفجرت بصمت سنوات وكلمات رتبت نفسها بالعقل والنفس في مرارة:

- *وصدقهم.. صدق الحقيقة اللي أنا باصحى كل يوم أكدبها وأنا مبقتش عارفة هي كدبة ولا حقيقة يا نجوى.*

وابتسمت نجوى باتزان غريب وهي تمسح بقايا الطعام من فمها وتتوجه نحو أختها فتضم رأسها نحوها في عنف ثقيل:

أعجوبة

وفهمت ماجدة ما يجول بخاطر أختها، أو ما تظن أنه نجاتها من نبوءات عابد.. هي لن تتزوج من ينحرها!

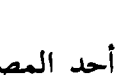

وزعتها القوى العاملة على أحد المصالح التابعة لوزارة الشباب والرياضة، لا تعرف ما علاقة هذا بتخصصها ولكن كما أخبرها علي هي مجرد مسمار بدرجة موجود سيدقونه في أول لوح خشبي مهترئ حتى يحين موعد نقلها لتابوت.

علي كان صادقاً.. سوى في شيء واحد.

أنه مثلهم!

هناك أيقنت أن العالم أكبر من منزلها، أكبر من قوانين بدر وكوابيس عابد، أكبر من وهم نجوى،.. وأكبر من عشق علي..

تعلمت أن تنساه، أو بالأحرى تدَّعي.. مكانها تحدد في غرفة واسعة مستطيلة بها سبعة مكاتب كلها مشغولة، واستطاع الساعي بإزاحة صغيرة لمكتب الأستاذ شوقي ومروحة مدام رجاء أن يختلس بقعة لمكتبها الثامن.

الأستاذ شوقي قارب عمره على الأربعين، كان له وجهاً بشوشاً بتلك الطلة التي تبيح راحة النساء فتقص له مدام رجاء حكاية ابن أختها الذي أفسد عليه حلاق الصحة طهارته وتصرخ بها عديلة زميلتها على المكتب المجاور مؤنبة بمصمصة شفاه تحمل للمصلحة ثرثرة.

أعجوبة

واسترسلت رجاء في شرح مميزات حلاق الصحة عن الطبيب المغرور، وأسعار كشوفات العيادة والزحام في ثقافة الكشف المُتعجِّل، مقاعد المستشفيات العامة المشققة وحادث الطبيب الذي نسي منديلاً في بطن ضحيته، وتنتهي نشرة الساعة بقدوم مدام إلهام لتخطف انتباه الأستاذ شوقي وعينيه وشفتيه واستدارة رأسه، كانت تجلس على المكتب المجاور له تماماً وتلك وحدها لها قصة.

امرأة جميلة في عمر ثلاثيني ناضج، لها وجهاً مستديراً بنقطة طابع حسن واضحة كبصمة سبابة ضئيلة.. قوامها معتدل مع تكوُّر أرداف واضح للعيان وأكتاف بضة تكاد تفاصيلها تنفجر من تحت قماش بلوزتها الزيتية، وتضع فوق رأسها «**بونيه**» أحمر تزيحه للوراء قليلاً كي تضمن ظهور الحلق ومقدمات شعرها المصبوغة.

مدام إلهام تخطف الحوار والانتباه من المرأة قبل الرجل فهي بمجرد أن تعلق حقيبتها الضخمة على طرف المقعد وتُخرج الجريدة وقلم الحبر الفرنسي الأسود لبدء محاولة فك شفرة الكلمات المتقاطعة تسترسل بلا مقدمات في الحديث، تحكي عن زوجها وآخر سفرة وعدها بها لمدينة رأس البر وهناك ستنزل المياه رغماً عنه فممدوح يغار.. هكذا تُكرر.. وممدوح ابتاع لها منذ يومان أسورة ذهبية ذهب سعودي فاخر وليس مصري، وممدوح يوقظها ليلاً دون موعد لأنه مشتاق.. هكذا تغيظ مدام رجاء ثم تتابع أنها منهكة وأن الأطفال لا يكفون عن طلب الحلويات، وأنها أعظم طباخة في عائلتها وأن الفستان الأحمر الذي ابتاعته من جابر تاجر الشنطة لا يليق بها لأنها اكتسبت بعض الوزن، وربما تحتاج لحمية

أعجوبة

قاسية توصلها لجسد آثار الحكيم ليصرخ الأستاذ شوقي منتفضاً قاطعاً الحوار:

ـ *لا.. أنت كده زي الفل!*

تضحك بانتشاء ويحفف المسكين عرقه ثم يتبرع في مساعدتها في الكلمات المتقاطعة وربما وصفة جديدة لمحشي الكرنب وطاجن الكوارع كي يعطيها لزوجته، ظل الوضع عبثياً على ما هو عليه، ولكنه كان آداة أكثر من مناسبة لقتل الوقت حتى جاء صباح بدل كل شيء في فضيحة، وخرجت إلهام تولول بمقدمة ملابس شبه ممزقة من غرفة أرشيف جانبية بينما هرول الأستاذ شوقي راكضاً وصوتها يمرر دهسه في جميع أروقة المصلحة..

ـ *يا راجل يا ناقص*

كان أول يوم ترى فيه شاكر، المكتب تحول لكتيبة نساء.. فإلهام تبكي وشادية سكرتيرة المدير وأحد عضوات جمعية ما خاصة بحقوق المرأة تصرخ وتندد وتنذر وحروفها تسلخ الرجل، أما رجاء فكما هي.. تجلس منتصبة باعتدال على مكتبها وفي يدها إبرة خياطة تنهي بها مفرش كروشيه لطاولة التلفاز، وترمق اعتدال بنظرة ذات معنى قبل أن تبتسم لماجدة باتساع ماكر، وإشارة محتقرة نحو الباكية، فهي من أغوته بحديثها وثيابها ولهفة ممدوح ووصفة محشي الكرنب والكوارع!

في مكتب المدير وتحديداً في غرفة مقابلة بها القائم بأعماله كان الأستاذ شوقي يجلس متعرقاً، جذب منديلاً قماشياً من جيب بنطاله ثم مسح بها مقدمة رأسه الأصلع في ارتجاف.. نزل ببصره نحو عينيه، ثم

أعجوبة

باقي وجهه.. كان الرجل مسكيناً غارقاً في شبر ماء من الخجل والفضيحة ولهاث صوته الذي بات يتوسل النجاة:

ـ *يا شاكر بيه..*

«شاكر ريحان العطار».

أفضل من في المصلحة كان يتوتر لمجرد مروره بهذا الاسم.. لم يكن كبيراً بالعمر، على الأرجح تخطى الخامسة والثلاثون بأشهر.. أصابه شيب مبكر فتسللت بعض الشعيرات البيضاء لفوديه بأناقة منظمة، له عينان واسعتان بانسحاب ثعلبي هادئ، شفتين رفيعتين وفوقهما أنف ضخم ولكنه متناسب بِطلّة جذابة مع ملامح وجهه. تلك الملامح التي كانت قادرة على التبدل في لحظة.. منتهى الحنان ومنتهى القسوة!

كان مقرباً من مدير المصلحة واعتبره الجميع ذراعه الأيمن، رغم ظهوره القليل إلا أنه كان قادراً على ضبط اتزان الأمور بقرار واحد.. ويومها ترك شاكر شوقي غارقاً في مصيبته دون أن يستمع منه لشيء وتوجه بملامح قاتمة نحو الطابق الثاني وغرفة الموظفات ثم مكتب إلهام، وخرجت نبرته جافة بأمر واحد:

ـ *تعالي علشان تمضي تنازل*

لفظ واحد.. إشارة واحدة.. وتحركت خلفه بإذعان!

وفي تلك النصف الدقيقة أم ربما أقل وانسحاب الموظفات الداعمات في دربكة وهروب استقامت رغماً عنها تتأمل المشهد ولم تعي أنها كانت تتأمله، تغرق في تفاصيله وتُختطف بحضور لم ترى مثله من قبل.

وتصلبت نظرتها حين ارتفعت عيناه نحوها، لم تدرك أنها كانت تحملق به بفضول التقطه هو بسيطرة رجل.. فحين يلتقط رجل نظرة امرأة نحوه يمتلك اللحظة، ثم يمتلكها هي فيما بعد.

مرت سبعة أيام، في قانون البشر والحياة والطبيعة السبعة أيام قد تحمل الكثير.. وقد تحمل لا شيء.

انتقل الأستاذ شوقي لطابق آخر وتقبل المهانة والسكون كي لا يتدخل التحقيق في الفضيحة، إلهام رضخت وعلى ما يبدو لم تكن تود التحقيق هي أيضاً.. وجاء الشيخ مرتجي ليحل محل الأستاذ شوقي وأصر على نقل مكتب إلهام في آخر الغرفة ولكنه لم يقطع حديث الجيران والأطباء والوصفات مع رجاء واعتدال وراوية التي عادت مؤخراً من أجازة وضع.

لم ترى شاكر بعدها مرة أخرى، ولكنها كانت حين تستغرق في النوم تلمحه.. يمسك بكفها باستحواذ ثم يحركها فيجعلها أمامه، يدفعها دفعاً كي يخرجا من المنزل القديم، تستدير له وتسأله عن عابد فتتسع ابتسامته ثم يدفعها من جديد، تسأله عن بدر فلا يجيب، تسأله عن علي فيحيط عنقها بكفيه ثم يميل نحو شفتيها فيقبلها كما لم يقبل رجل امرأة من قبل.. ولم تكن غاضبة أو خائفة.. كانت تريد أن تكون معه!

ونجوى كعادتها تخرج بعبارة مفاجأة في موعدها.. في الصباح سألتها عن علي.. سألتها إن كانت ما زالت تحبه. وسألت هي نفسها السؤال طوال الطريق إلى المصلحة.

هل ما زالت تحب علي؟ وإن كانت.. فلمَ يحتضنها بالمنام رجلاً آخر.

يومها جاءها طلب بالمرور على مكتب نائب المدير، إحضار ملفات بأرقام كذا وكذا وتعجل وتوتر وحيرة وهي تأخذ نفسها إليه، طرقت الباب ثلاث مرات قبل أن تسمع نبرة صوته بإذن الدخول.. كان صوتاً هادئاً به انفعال أجش يدعو كل من حوله إلى الإنصات، تلك المرة نالت دقيقة هادئة من تأمله.. كان يجلس في استقامة شامخة على مقعد جلدي متوسط الحجم وبين أصابعه قلم ذهبي أنيق، يمرر بعض الأوراق أمامه بحركة ديناميكية وينثر توقيعه على ما يريد.. رفع عينيه فجأة فوجدها منعزلة في نظرات خجلة بعيدة عنه. اتخذت حذرها تلك المرة..

ـ *ماجدة؟*

كان يلفظ اسمها ببطء على هيئة سؤال إجابته معروفه، أومأت وناولته الملفات ثم استقامت فجأة لتستدير وتهرب.. خطوة وفي الثانية توقفت وكادت أن تتعثر.

ـ *ما سمحتلكيش تمشي!*

نبرته كانت زاعقة برنة أربكتها، استدارت وعيناها ترمقه بتشوش، فلم تلحظ سوى أنه يقترب.. يستغرق بها كما الحلم ويطيل النظر.. أو كما فعلت من قبل.. يحملق!

هي نظرت نحو عينيه وهربت في تلك الدقيقة ألف مرة، أما هو فنظر لها كلها.. الوجه والأنف والخصلات والرقبة والقوام، كان يأكلها في نظرة..

ولم تمانع..

هي خطت رغماً عنها بعالم شاكر ريحان.

سألها بعد يومين وبعد طلب آخر لكي تأتي وتأخذ الملفات التي أحضرتها عن مطعم عائم شهير، ولم تكن تعرفه فأخبرها أنها ستذهب معه. لم تملك حينها اعتراض ولكن حين جاء الموعد، ولمحت سيارته متوقفة في طريق جانبي بعيداً عن مسار خروج الموظفين، هربت في اتجاه معاكس وتشوش عقلها ففقدت القرار لتجد نفسها مرة أخرى أمامه، وسيارته تعترض طريقها في غضب آمر:

ـ *اركبي!*

وابتلعت ريقها ثلاث مرات ثم جاورته وبعدها.. شعرت بالراحة. وهناك استدعت نفسها القديمة حين كانت مع علي، الهواء والنسمات الباردة في برودة يناير.. دفء الشمس الذي بحثت عنه بشرتها وإن غاب الانطلاق عن صوتها وحضر التلعثم. لا تعرف ما الذي يصيبها وهي معه، وكأنها تترك نفسها له.. تُغمض عينيها في دربه.

كان متحدثاً بارعاً، لم يكن حماسي النبرة مثل علي بل كان متزناً يدرك اللفظ ومساره، تحدث عن المصلحة والموظفين.. عن المسكين شوقي وعن مدام إلهام التي رفعت شكوى مماثلة منذ ستة أشهر في أحد السعاة ولكن كانت أقل ضجة!ابتسم بعبث ثم سحب سكينه بأناقة ليقطع شريحة البفتيك بمقادير متساوية، قبل أن يبدأ بأكلها وفي المضغة الثانية رفع بصره إليها في اهتمام رجل:

ـ *ساكتة ليه؟*

أعجوبة

لم تجب.. مسدت خصلات شعرها بارتباك وابتسمت بتردد قبل أن تستأنف مضغ قطعة اللحم ببطء وتتجرع المياه منهية اللَقطة.

فقد كان يراقبها بتلذذ..

«**لماذا؟**».

عيناها سألته وأجاب هو بأريحية وهو يستند بظهره إلى الخلف:

ـ *مش عارف.. جايز علشان مختلفة.. مختلفة عن كل الرتوش اللي حوالينا*

وجذبها في منطقة تأمله، تلك المنطقة التي ما إن تدخلها تشعر أنها محاصرة به دون رغبة في الهروب. أما هو فكان يدرس ملامحها.. بدا كمعلم فلسفة شاب يقف جوار تمثال حبيبته مفسراً فتنتها أمام العقول المتواضعة.

ـ *كل حاجة بقت مزيفة.. الكلمة الصوت الابتسامة النظرة، موضة اللبس تسريحة الشعر.. كلهم فالصو.*

ثم تابع وهو يقترب منها وعيناه تتقدان بنظرة متلهفة:

ـ *بس أنت حاجة تانية.*

وكل مآسي التاريخ وحكاياته بدأت بنفس الجملة، هاجمها شعور بشأنه وكأنه اللهب وهي فراشة لا هم لها سوى أن تحترق.. سمحت له أن يستأثر بأناملها، يلتصق بها في مراقبة غرامية لغروب الشمس ويضع بأريحية يده فوق كتفها. أن يبيح دفء أنفاسه قرب عنقها، ويضغط بإبهاميه خلف أذنيها بحميمية لم تكن تعي أنها موجودة. يهمس جوار

شفتيها باشتياق ثابت الانفعال، وينهي اللحظة وقتما يريد بحنكة خبير. تعددت لقاءتهما، كان يملي أمره بالمكان والموعد وتجد هي نفسها مسحوبة بطاعة. هو من تلك النوعية القادرة على توجيه الدفة وقذفها بالقارب واختيار التيار كما ينبغي، طلب قائمة طعام مبهرة ثم إلغاءها بفرقعة إصبع لأنه قرر أن يستضيفها بمنزله..

ونظرت نحوه في ذهول عزم تجاهله، وأمسك يدها يقود الطريق نحو ممر ثم سيارة ثم عمارة منزوية في طريق فرعي يبعد عن كورنيش النيل أربعمائة متر بحي الزمالك.

ضغط على زر الطابق الخامس بمصعد خانق، وأدار مفتاح صغير بأريحية حتى انفتح الباب عن شقة فخمة. ورق حائط أسري حميم بلون اخضر وغرفة استقبال فخمة أهم ما يميزها بار جانبي يحمل جميع أنواع المشروبات التي لا تعرفها.. سألته في بلاهة:

ـ *بتشرب؟*

واستنكارها مر رغماً عنها جوار الحروف، وفسر بلامبالاة وهو يقذف بمكعبات الثلج في كأسه:

ـ *أتعودت*

ثم اقترب منها ليسحبها نحو أريكة ضيقة بالكاد استوعبتهم، شعرت أن عينيه تتجول ببطء فوق صفحة وجهها.. تحديداً في تلك المساحة التي تحمل مواطن اللغة، العينين.. والشفاه.

حاولت أن تقطع الصمت فأشار لها بهدوء ألا تتحدث ثم مالت عينيه نحو جسدها بانفعال مباشر، هي محتشمة المظهر بشكل عام.. لا تجيد

أعجوبة

ارتداء ما يلفت الانتباه ولا تمتلك ذوقاً صارخاً في الألوان. مجرد تنورة داكنة بسيطة تحت الركبة وبلوزة محتشمة بأكمام.. خصلاتها معقوصة نحو الخلف وأحياناً تترك لها العنان في تسريحة منسدلة.

اليوم كانت خصلاتها معقوصة، وقميصها وردي معتدل بثلاثة أزرار ضخمة. مد يده اليسرى فشتتت الخصلات وتخللتها أنامله، ثم مد اليمنى فحل قيد أول زرين من مقدمة قميصها.. ورغم أن أنوثتها كانت تعي تماماً ما يحدث وسيحدث إلا أن ردة فعلها كانت متأخرة فوجدت شفتيه فوق شفتيها وفهمت معنى عبق الخمر ومرارته فكرهته وتملصت منه فزاد من سيطرته حتى فقدت أنفاسها وبين شهوته لمحت بدرية.. لمحت غرفة السطح وتعرق حسين فوق جسدها ودماء نحر آخر تكرر بعد عام من الملحمة.

صرخت ودفعته فصدم ذراعه كأس الخمر خلفه وتناثر الكوب وشظاياه فوق السجادة الكريمية المزركشة، وحين استوعب الأمر من بين دواره كانت قد رحلت..

أسند رأسه في تعب، ثم سحب كأساً آخر سكب فيه الويسكي تلك المرة دون ثلج ورفع سماعة الهاتف ليُحادث صديقاً وعيناه تلمع في الظلام:

ـ *أنا قررت أتجوز*

أعجوبة

أعجوبة

٨

«هنيّة أم البنات».

التصق اللقب بها على مدار سنوات، وكانت تكرهه.. وكرهته أكثر حين دخل ريحان عليها بعدلات.

ـ *كانت أيام!*

وهمست بها بمصمصة شفاه متحسرة ثم قمطت منديل رأسها بثلاث عقد وشمرت عن ساعديها وهي تقلب قوالب الزبد الجاموسي في الإناء الضخم، زعقت على خادمتها بعزيمة وأشارت لها بذقنها أن تفتح خزانة جانبية لتأخذ النقود وتبتاع لها باذنجان صغير طازج ثم صعدت نحو السطح مع سكينها الضخم وتوجهت نحو ذكر البط محروس فهي اعتادت أن تسميهم. ذبحته وأنهت تنظيفه في وقت قياسي وعادت لتزعق على خادمتها من جديد:

ـ *الموكوس طلع ريش.. ندبح النتاية!*

أعجوبة

زين وكان هذا اسم خادمتها، كانت امرأة أربعينية سمينة، لازمتها من قبل مولد شاكر بعام واحد ومن وقتها أقسمت ألا تستغني عنها.. وفهمت زين سيدتها فعاملتها بمكر قروي أنبتته الحاجة فكانت تناديها أم شاكر.

بحلول آذان الظهيرة كانت هنية قد قاربت على إنهاء وليمة الجمعة المعتادة، تحضر بناتها الأربع بعائلتهن. ويجلس شاكر على مقدمة المائدة بعد أن يقبل يديها وتقبل رأسه ثم يبدأ الجميع في تناول طعامه في صمت فهو منع فوضى الحديث على الطاولة منذ احتل مقدمتها، وهكذا كان لشاكر نهجه الخاص.. كان أنيقاً يجيد اختيار ملابسه فلا يخرج من بيته إلا بحلة رسمية كاملة أو أحد ستراته على الموضة الإيطالية مع سروال مناسب، كان يحرص على أن يكون حليق الذقن دوماً ويبتاع عطوره الخاصة من أحد محلات المنتجات المستوردة وينتقي أحذيته من محل خاص يملكه أحد معارفه في روكسي. لم تكن هنية تعلم شيء عن شقة الزمالك ولكنها كانت تعرف أن له علاقات نسائية متعددة وحين كانت تعترض إحدى البنات أو تلوك في حنكها سيرته جوار علكة مُرّة كانت تجيبها بالعبارة الشهيرة.

ـ هو حر

ولأنه حر فاجآها بعد انتهاء الوليمة ورقودها متهالكة على فراشها النحاسي وهي تزعق على زين مجدداً كي تحضر لها بعض القرفة الساخنة. استند على جانب الباب يراقب وجهها الجميل المتغضن بخطوط الزمن وابتسامته تتسع بثبات يمرر ما طلبته مراراً:

ـ *أنا قررت أتجوز*

أعجوبة

وتركها وهو يشعل لفافة تبغ من نوع «**روثمان**» منهياً باقي حريقها في شرفته ومفوتاً زعقتها الغاضبة في زين وهي تتعجل القرفة وتسألها بغضب عن بائع الباذنجان الحرامي وخلطة الأرز التي قل ملحها والبط القليل اللحم رغم أنها زادت على محروس النتاية الضخمة وانفجر غضبها في النهاية وهي تقذف سؤالها الأخير:

ـ *دبحتي نوال؟*

ـ *لا يا ستي دوكها ريشها مقصوص أنا دبحت التانية*

وأمسكت هنية رأسها ومنديلها ثم جزت فوق نواجدها بغضب مكتوم وهي تدعو عليها في ولولة:

ـ *يا خيبتي القوية.. دبحتي ماجدة!*

انثنت قدميها فوق بعضهما البعض وهي تحاول اللحاق بالحافلة، على يمين الطريق نادتها امرأة أربعينية ونظرت بتفحص لكعب حذاءها المنكسر بحنكة ثم سحبت الآخر فقطمته قبل أن تربت على كتفها باهتمام جاف:

ـ *علشان تعرفي تمشي..*

ولم تستطع أن تذهب إلى العمل بهذا المظهر، عادت إلى البيت وبدلت الحذاء ثم أعادت عقص خصلاتها مجدداً وحين انتبهت للمرآة أيقنت أنها تبكي.

أعجوبة

كان تبكي منذ لحظة خروجها من المنزل.. بل تبكي منذ ليلة الأمس.. بل من وقت ما خرجت لاهثة من الشقة, أمسكت قبة قميصها بضيق وكان اختياراً تلك المرة دون أزرار ثم عاد وجهها للمرآة وهي تتلمس ملامحها، تمر بإبهام مرتعش فوق شفتيها وتتذكر نفسها معه والدموع تعاود للتساقط رغماً عنها، مسحت جفنيها بعنف ثم سحبت حقيبتها في تعجل كي تخرج قبل أن تلمحها نجوى، وفي طريق هروبها التقطت أذنيها صوت أختها من خلف باب مغلق..

ـ *عمي عابد.. هو أنا حموت؟*

حينها أيقنت أن نجوى متصنعة القوة لا تختلف عن أي منهن.. نجوى مثلها مثل بدر ومثل عابد، تعيش في ظل خُرافة ابتدعها كابوس وترتب أحجية مصيرها تبعاً لحكاية.

وفي المصلحة كان الموظفون ينسجون حولها حكايات آخرى، إلهام تولول لأنها اكتشفت أن لزوجها عشيقة، ورجاء تغيظها بتلميح أن العشيقة قد تكون زوجة وعلى الأغلب إلهام هي الثانية أما الشيخ مرتجي فيندب حظه بسبب جارهم المتوفى في حادث دراجة نارية منذ شهر والذي يزور زوجته، يناديها بأعلى صوته باسم أمها.. ومن أين علم هذا الملعون الاسم، وذهبوا لرجل مبروك ودخل شقته فقرأ آيات فوق إناء مياة فاترة ثم قام بتوزيع المياه في جميع أنحاء الشقة، ولكن بعدها بيومين جاءها الموكوس على حد تعبيره وتلك المرة صف الدراجة أمام باب الشقة وقال لها.

«والله لأطلع عينك».

أعجوبة

ومن بين اهتمام الباقيين بالحكاية تجمدت الكلمات فوق شفتيها وهي تتمنى أن تسأله..

«**هل للأموات سُلطة!**.

وسبقتها رجاء ولكن بتعليق لاذع:

ـ *وأنت مش شيخ يا مرتجي؟!*

فأجاب بوجه ساكن مغتم في مصيبته:

ـ *أنا راجل على باب الله*

وكما العادة مع جميع أحاديث المصلحة، تبدأ فجأة وتنتهي فجأة.. وهنا كان الختام مع رنّة هاتف وصوت الأستاذ مرتجي وهو ينبهها بطلب وحضور لمكتب نائب المدير..

«**شاكر**».

وتحركت بديناميكية مترددة، تقدم خطوة وتؤخر ثلاثة، وتعرقت الأوراق التي ادعى طلبها بين كفيها. حركت مقبض الباب بيد باردة بعد أن طرقته ثلاث مرات قطعتهما نبرته الأجشة بلفظ ..

«**ادخل**».

على مقعده الجلدي الدوار كان يجلس باسترخاء وعيناه مسلطتان عليها، كل تفصيلة بها كانت تحت تركيزه. ارتباكها تغلب على غضبها المكتوم فأرادت أن تقذف الأوراق فوق المكتب وترحل مُسرعة ولكنه مد يده نحوها في ثبات كي تمررها له، وأخذ الأوراق ومعها كلا كفيها.

شهقت وحاولت أن تتملص منه ولكنه استقام في أقل من ثانية ليُحاصرها بعبثٍ مراهق، أصبح ظهرها للمكتب ومُحاصرة بين ذراعيه.

همس باقتراب ذكرها بآخر لقاء بينهما:

- *مش حتقدري تهربي هنا!*

أما هي فلم تُحاول الهرب، تهدل كتفاها في يأس وارتخى جفناها مع تنهيدة حائرة:

- *أنت عايز مني إيه؟*

ولم يعقب في لحظتها، ظل على لحظة صمت تمنى ألا ترحل، واقترب لمسافة زائدة أباحت استنشاقها أكثر.. ثم انحنت شفتاه بتعبير مشاغب:

- *كل خير*

والتقت عينيها بعينيه ولأول مرة منذ التقت به تشعر أنها اُختطفت، مر الحب على قلبها مرتين.. الأولى بحماس فجر في قلبها الثورة والثانية معركة..

دقت طبول الحرب فأيقنت السقوط وهربت. وقبل أن تفعلها جذب أناملها بتمهل ووضع فيهما ورقة وبعدما خطت مبتعدة عن مكتبه أربع خطوات، ثم المصلحة كلها أيقنت أنها تحمل درب وصاله.

أعجوبة

رغماً عن أنف الكوابيس تسللت حكاية!

تولت نجوى أمر صراخ عابد، على مدى أشهر قليلة لاق بها دور بدر.. حتى أنها اتخذت حجرتها!

كانت تستيقظ مع خيوط الفجر، تنظف المنزل وتأخذ حليب أم هانم ثم تقدمه بقشدته ودسمه وكسرات الخبز لعابد ثم ترتدي ثوباً أزرق اللون يشبه المعطف وتربط فوقه الوشاح بعقدة امرأة خمسينية وتتجه نحو السوق فتبتاع الخبز واللحم والخضار وتعود مبتهجة فتنادي على عابد الراقد في فراشه بين حياة وتيه..

ـ *حاعملك بامية*

وتطعمه بيدها، وتهرس الأرز بشوكة قاسية وتذيبه ببعض الحساء مع لحم رطب لأنه فقد بالأمس نصف أسنانه حين جز عليهما في أسوء كابوس وقرأت المعوذتين على رأسه قبل أن تقول بحنان:

ـ *مر الحمد الله*

ومازحته وجذبت انتباهه لأول مرة برضا:

ـ *لو مكلتش حبيع الخلاخيل!*

ومرت الأيام ونجوى تتبدل لأخرى، تنتقل لضفة لا تفهمها ماجدة حتى ظنت أن عابد قارب على استضافتها في كوابيسه. ولكن بالنسبة إليها هي كان الأمر أكثر من ملائم. كان أشبه بحلم تبدأه وحدها وأول حروفه «**شاكر**».

أعجوبة

أول مرة حادثته أخطأت في ضرب الرقم أربع مرات وفي الخامسة اتخذت قرارها أن تُغلق الخط بمجرد أن تسمع صوته.

وكان رائقاً.. صافياً يحتل لنفسه مساحة خاصة من هدوء الليل وبعيداً عن صومعته المعتادة بعمارة الزمالك. أسند رأسه على الوسادة المنفوضة بعزيمة زين وأوامر هنية ومالت عينيه براحة وهو يستمع إلى تردد أنفاسها الصامت ثم نال منها البداية بكلمة واحدة:

- وحشتيني

ورغم أنها أغلقت الخط بفزع ليلتها إلا أن الليالي التالية كانت كلها له، تحدثا في كل شيء.. كان معها آخر غير ذاك الصارم الذي يهابه الجميع بجدران المصلحة. عرفت منه تفاصيل هنية وعراكاتها مع زين بشأن الطعام والبط والسمن والقلقاس وعجينة الطعمية، آخبرها عن حسن وحسين وموتهما في حادث هروب من أحد معتقلات ناصر. قالها بشكل سريع خاطف ولم يُعقِّب، ولا تعلم لمَ تذكرت لحظتها علي..

علي كان يُقحم السياسة في كل تفصيلة من كلامه وكأنها النتيجة والسبب والحل والعقدة، أما شاكر فكان يثق تماماً أننا سبب مآسينا.

ومرة أخرى ظهر على وجهها الحب، ولم تكن بدر موجودة تلك المرة لتقتنص حُمرة ملامحها.. ولا لمعة عينيها حين يمر بخاطرها تفاصيله.

كان يراها في حديقة الأسماك، هناك تبيح لهما الخصوصية وجواز العشق اقتراب دون أن تخافه، وابتسم لها مرة باتساع ضاحك حتى تراقصت الخطوط على جوانب عيناه.

- *لسه بتخافي مني يا ماجدة!*

أعجوبة

وكورت كلا كفيها فوق ثغرها الذي كان لتوه قد حاول اقتناصه وعيناها ترتفع نحوه في احتياج، ربما عليه أن يختطف القبلة.. ربما عليه أن يختطفها كلها كي ترتاح. واعتدل جسده فجاورها ثم لف ذراعه الأيمن حولها ليضمها إليه في استحواذ وقال كلمته دون أن ينظر نحوها.. نطقها في خطفة ودون مقدمات.

لم يقل «**أحبك**».

سن حروفه بامتلاك كامل..

ـ *تتجوزيني؟*

وصرخت مرّتان!

الأولى بعينيها التي أذعنت بلهفة والثانية بصوتها الذي هرب بجزع..

ـ لا

وأرادت أن تختفي.. تركض.. تهرب.. تتمنى لو أنها لم تراه.. لم تحبه.

وانفجرت شياطين غضبه بوجهها فجذب ذراعها نحوه بقسوة كادت تخلعه، جحظت عيناه في ذهول مستعر ونبرته تزعق بها غير مبالي:

ـ *يعني إيه!*

وحاولت التملص من جديد فجذبها نحوه بقوة أكبر واصطدم صدرها بصدره وكانت به قسوة فهو يود أن يطحن عظامها بجسده، ويبقيها له للأبد والكارثة أنه يعرف أنها تشاركه تلك الرغبة!

أعجوبة

وهدأت ثورته في لحظة حين بكت.. نشيج مرتعش سقط فوق صدره قبل أن يسقط رأسها معه، أحاط وجنتيها بكفيه ورفعهما نحو وجهه لتحنو عيناه جوار نبرة مبحوحة:

ـ *ليه*

وكرر بانفعال مكتوم:

ـ *أنا عارف إنك بتحبيني..*

وتساقط ثباته فأباح جنون عاشق:

ـ *وأنا بحبك!*

ـ *وأنا حموت..*

قالتها ببرود جمّد اللحظة وفي طرفة ذهولٍ.. هربت.

اختفت من عالمه ثلاث ليالٍ متتالية وعادت لعملها في الرابع لتكتشف أنه اختفى بدوره.. عاد لشقة الزمالك بعد أن غادرها لأشهر معانقاً خمره، ترقرقت عيناها بالدموع وهي تلمح سيارته المصطفة تحت البناية، هذا وقد أخبرته مدعية الخوف على نفسها فماذا إن علم أنه هو من تخاف عليه..

تخاف أن تُسقطه في فخ نحرها..

تلك المرة لم تقدم وتؤخر الخطوات، اتخذت قرارها في نصف لحظة وبعزيمة كانت تدق بابه.. لأول مرة تلمح لحيته نابتة كالشوك، كان بها بضعة شعيرات بيضاء زادوا عشقها له بعدد تناثرهم.. آلمها حزن عينيه والأكثر كان جفاءه وهو يستدير مبتعداً عنها..

أعجوبة

- *عايزة ايه؟*

- *عايزة أطمن عليك*

نبرته جافة ونبرتها متوسلة.. حرك رأسه بنصف استدارة لمحت منها انفعال قاسٍ من شفتيه:

- *وأنتِ السبب؟*

وافقته وهي تكتم ارتجاف حروفها.

- *معاك حق بس أنت عمرك ما حتفهم*

واستدار لها بكامل جسده وغضبه يسبقه من جديد.

- *أفهم ايه.. إنت قولتي هذيان مش مفهوم.. إنت قولتي هروب يا ماجدة*

فقدها "**علي**" أو فقدته.. حينها لم تصرخ لترفض أو تقبل، وهنا كان هو.. الصورة بتفاصيلها فلم تود رؤية شيء غيره.. أسقطت حقيبتها جوارها وأرخت ذراعيها أمامه في يأس:

- *أنا ممكن أكون ملكك دلوقتي لو ده حيثبتلك إني مش بهرب*

بعدها وجدت نفسها تجاوره على مقعد خشبي في حديقة الأسماك، موطنهم..

استرخت برأسها فوق كتفه وأخبرته بأريحية عن كل شيء.

عن موت صبرية، وهروب زاهد.. عن تهمة الخيانة ولقب بنات العاهرة في أعين سكان الحي.

عن نحر بدرية ممن اختاره قلبها.

أعجوبة

عن أقاويل صنعوا منها تراثاً ظالماً من دماء صاحبة الرنان.

عن خذلان بدر..

وعن هروب علي!

ـ *عابد بيقول أننا حنموت.. نسل صبرية حيتدبح زيها*

واخشن صوتها بجفاف، هربت دمعة ساخنة لتشق طريقها بمنحنيات ملامحها حتى وصلت لنسيج سترته.. لم يسألها عن شيء، حتى انه لم يطالب بمزيد من التفاصيل.

قربها منه.. فعلياً احتضنها فتشبثت بتفاصيل عبقه، أخرج من جيب سترته الأيمن سيجارة رفيعة وترك لأنفاسه حرية الدخان وكأنه يدفئ كلاهما به، غامت عيناه بلاشيء، ولكنه لم يلمح في الصورة سواها زوجته.

مال برأسه فوق رأسها ليبتسم بمزاج ساخر.

ـ *لما حاقتلك حموت؟!*

نظرت نحوه لا تفهم فتابع بنبرة واثقة.

ـ *خلاص.. بيقى حقابلك على البر الثاني!*

أعجوبة

٩

الواقع أضيق من أن يتسع لحياة كاملة

توفيق الحكيم

ـ *عابد..*

ـ *صبرية!*

ـ *فين خلخالي*

ـ *عندي جوه.. تعالي خوديه يا صبرية.. تعالي*

ومد ذراعه نحوها وأنفاسه تسبق صوته فتهللت أساريرها لتقترب، ولكنها توقفت فجأة حين انغرست قدميها في بركة من الدماء.

نظرت نحوه بتوسل:

ـ *عابد!*

وتجمدت يداه وهو يرى شلال الدماء المتساقط من مقدمة رقبتها، أما هي فكانت تنظر لدمائها بهلع وتبكي. جلست على التراب جوار البركة ثم ضحكت بين نحيبها:

أعجوبة

ـ *عايزة خلخالي*

أجابها بطاعة:

ـ *حاضر*

تابعت دون أن تنظر له، ورويداً رويداً غابت حدقتيها لتحتل مكانهما فجوة فارغة:

ـ *عايزاه بورد.. ورد أبيض يا عابد*

ـ *ورد أبيض يا ست البنات.. حاجيبهولك بنفسي*

نطقها بشوق بدا وكأنه ضخ جرعة أدرينالين كاملة في دماءه، نظر على جانبه الأيمن فلمح صندوق أحذيته ثم نظر على الجانب الأيسر فرأي سلة خضروات عين. عاد بنظره نحوها مجدداً فلم يجدها ولم يجد البركة، لمح جسدها يقف منتصباً ويبتعد ببطء دون خطوات وصوتها حول أذنيه ثقيل بنغمة لم تكن لها:

ـ *مش أنت*

كانت صوت بدر!

في تلك الليلة لم يستيقظ بصراخ، وعندما جاءته نجوى في الصباح بكسرات الخبز والحليب أزاح الصحن بهدوء ونظر نحوها في ضعف صادق ثم قصّ تفاصيل كابوسه، كانت أول مرة يُفضي فيها عابد بفحوى لعناته.. نثر حروفه واستدار لينام وكان نوماً هادئاً دون أضغاث، أما نجوى فارتدى معطفها ووشاحها الداكن وتوجهت نحو منزل حُسن.

أعجوبة

قلبها كان به انقباض لا تفهمه، وكل ما أرادته هو أن تطمئن على بدر، ولكن حُسن التي استقبلتها بترحيب فاتر لم تسمح لها برؤيتها، وتذرعت بأن بدر مريضة وتنام طوال النهار، وتستيقظ في الليل ومنع عنها الطبيب الزيارات، جوار حُسن كانت تجلس امرأة قاسية القسمات بجسد منفجر التضاريس ولكن دون سُمنة وكانت تلك هي وجيدة زوجة المأسوف على عشقه!

خلف مقعدها توارى طفلٌ نحيل ظل يرمقها بنظرات مبهمة فابتسمت له وأخرجت من حقيبتها بعض الحلوى فاقترب منها وضحك وحين قطعت وجيدة وصالهم برعونة:

ـ *مش بياكل الحاجات دي*

ودفعته أمامها دفعاً حتى غادر كلاهما الغرفة مع نبرة حُسن التي صرفتها في أناقة:

ـ *شرفتي!*

وحين عادت إلى البيت علمت أن الكابوس لم يكن بشأن بدر، ففي غرفة استقبالهم كان هناك ضيف بمظهر أنيق وكلمات منتقاة كتلك التي تسمعها بالتلفاز، وصوت يمرر حروفه بكياسة طالباً للزواج أختها.

مرت بعدها ثلاث أيام لم تحدث فيهم ماجدة، لم تنم أبداً.. ظلت مستيقظة تصل النهار بالعويل وفي الرابع توجهت نحو غرفة عابد.. صرخت في وجهه بتلعثم مهتاج:

ـ *عايزة ماجدة!*

أعجوبة

وكانت تقصد صبرية، فتحت الخزانة وأخرجت الخلاخيل ثم توجهت للمطبخ وأحضرت مقبض الهون النحاسي لتسقطه بهياج فوق الخلاخيل ضربة تلو أخرى وتصرخ بعزمها لاعنة صبرية!

صرخت ماجدة بوجع فاقدة قدرتها على التحمل، أحاطت رأسها وصورة نجوى ترتعش أمامها في انهيار:

ـ *كفاية*

ولم تتوقف نجوى، ظلت تدق الخلاخيل حتى هشمتها ونبرتها تعلو وتعلو في تتهته.

ـ *زاهد.. قتل صبرية*

ـ *حسين قتل بدرية*

ـ *شاكر قتل ماجدة!*

وظلت تكررهم دون وعي حتى نامت على وضعها وفي الصباح لم تتذكر شيء!

وأيقنت ماجدة أنها فقدت كل تحمُّل ممكن للبقاء في هذا الكابوس، وهاتفته في السابعة صباحا وجوار قدميها حقيبة ملابس متوسطة وصوتها يهرب نحوه:

ـ *نتجوز النهاردة*

أعجوبة

آخذها وسافرا إلى الإسكندرية، اتخذ قراره في لحظة ثم نظر نحو هنية التي كانت تضرب العجين بغيظ لأن خادمتها الحمقاء أسقطت وعاء اللبن ولأن السمن الذي أحضرته بالأمس مغشوش وفوق هذا كله هو سيتزوج بفتاة لم تختارها.

نظر نحوها بعينين ثابتتين وقال جملته دون تعقيب:

ـ *أنا حاتجوز ماجدة في إسكندرية وراجع بعد أسبوع!*

اختار فندقاً هادئاً على أطراف المدينة يناسب ذوقه، بارك لهم حامل الحقائب بتودد مكرر وثرثرة توقفت مع بقشيش سخي وطلب عشاء فاخر مع لافتة عدم الإزعاج، راقبت البحر من النافذة وقد طغا عليه السواد.. بات مخيفاً.. يشبه مجهولاً لا تفهمه.

شعرت بأنفاسه قرب عنقها تمرر شغفه جوار سؤال:

ـ *أول مرة تشوفي البحر؟*

وردت بجمود شارد:

ـ *إحنا مش بنسيب البيت القديم*

أدارها نحوه في تملك محبب ولاحظ نبوت دمعة فأجهضها باقتراب مدروس نحو شفتيها لينثر قبلات خفيفة مكررة كل قبلة أطلق عليها حرف من حروف اسمه، كان ينطقهم بدفء هامس بين كل قبلة وأخرى ثم يكررهم ويكررهم مجدداً حتى حاوطها بجسده واسمه وحضوره لتوقن أن العالم الآن بات يحمل شاكر..

شاكر وفقط..

أعجوبة

جذبها من يدها بحنو بعد أن ضغط عليها بقوة ثم أجلسها جواره على الفراش مملساً على خصلات رأسها، كان يلحظ ارتباكها الشديد.. فرقعة أصابعها المتتالية وتعرق كفيها ونظرها المتوتر نحو حقيبة ملابسها ليصيبها قلق من نوع آخر، فهي لا تمتلك ثوباً مناسباً لعروس.

ضحك بمكر وأيقنت حينها أنه فهم ما يجول بخاطرها ثم قام ليتوجه نحو حقيبته ويخرج منها كيساً بلاستيكياً متوسطاً وضعه مباشرة أمامها وهو يمرر رغبته بلطافة:

- *على ذوقي*

وطلب منها بشكل مباشر أن تختار الأبيض ولاحظت أن عينيه جائعة، أن نظرتها نحو ملامحه ونظرته نحو مفاتنها، أن شاكر في تلك اللحظة مجرد رجل وهي امرأة وستدخل الآن لدورة المياه لتخفف ملابسها وتتعرى من أجله وتبدأ طقوس زواجهما فوق فراش وأيقنت لأول مرة أن خيالها لم يصل لتلك النقطة مع «**علي**» وأن أقصى شرود فاحش لها معه كان قبلاته. أما شاكر فاجتاح خيالها الآن قبل أن يجتاحها هي وجواره استشعرت معنى النشوة اللطيفة فأدركت حميمية الزواج وأدركت أن قلبها يحبه ولكن بشكل آخر، واستيقظت من نومها نضرة حتى أنها فكرت أن تهاتف نجوى ولكنها ترددت.. طلبت لهما إفطاراً شهياً على ذوقها وأعدت حمامه.. رتبت ملابسه وجورابه وأزرار قمصانه بأناقة ثم مرت فوق جبهته بقبلات لطيفة ناعمة وازت حروف اسمها وعادت لنفس التكرار فوق وجنتيه وشفتيه الرفيعتين وأخبرته أنها تشعر أنه أبيها.. أنه كل شيء في الدنيا.. أصبحت تنام سعيدة هانئة دون أحلام ولا صراخ منتظر لكوابيس ومرت عليها في الجنة على حد تعبيرها ستة أيام وفي

أعجوبة

السابع هاتفت نجوى وقالت لها ببهجة أن عابد كاذب وبدر واهمة وأن آخر معقول في الدنيا هو أن يقتلها شاكر!

وفي منزل هنية كان العمل على قدم وساق، ورغم غضبها وصراخها الهستيري بزين وزعيقها المستمر ببناتها إلا أن لمحة سعادة قفزت فجأة نحو شفتيها حين طلّ شاكر بعروسه التي تراها لأول مرة فجالت في المنزل ضاحكة عابثة تردد أن تلك الزيجة لن تستمر. فهي تعلم طباع ابنها شاكر جيداً وهو انتقائي لدرجة لن تتحملها تلك المسكينة.

ولكنها لم تكن تعلم أن شاكر نفسه من تبدل، طلب من ماجدة أن تتخلى عن عملها ووافقت دون أن تناقشه، ولكنه برر وأخبرها أنه رجلاً يغار ولن يتحمل فكرة وجودها نصف النهار أمام عيني رجل أياً كان، كان يُخبرها أنه عشقها حين رآها أول مرة بمقدار.. حين اختلس اللمسة بمقدار، والقبلة بمقدار، وهروبها مقدار.. وتجمعت المقادير ففجرت بقلبه الشغف وحينها قرر أن يتزوجها. والزواج نصف الحب هذا رأيه ولا حب مُكتمل دون زواج فالعشق الأفلاطوني في نظره هراء فكيف لعاشق أن يفهم الحب دون أن يتذوق امرأته. وكانت لياليهم عهراً آثماً فوق أذن هنية ولطالما قالت أنها هي المذنبة وهي من علمت ابنها البريء فنون الغرام!

حتى وشى لها أحدهم بحكاية وخائنة نُحرت ولعنة ستصيب البنات، فبات الظن حقيقة وغادرت التكهنات الخيال وواجهته في ليلة مظلمة دون ضوء قمر وكانت ماجدة مُتعبة فخلدت للنوم باكرة بعد أن أصرت أن تطعمه بيدها عشاءه، شعر بخطوات أمه تتلكأ خلفه في ظلام الشرفة وبعينيها لمعة هستيرية وهي تبكي وتولول:

أعجوبة

ـ *عملت في نفسك كده ليه يا شاكر!*

حكاية بدأت بكابوس، عن امرأة خائنة.. مذبوحة بأمر الشرف.

وثلاث فتيات سيصبحن مثلها!

وسقطت هنية رقيدة الفراش وثار بناتها الأربع بوجه ماجدة، أظلم البيت فجأة بعدما كان مُشرقاً وانزوت منكمشة فوق فراشها تنظر نحوه وتبكي فقام وقد تمكن منه التعب واليأس وقبل رأسها ثم ضمها إلى صدره وخرج فصرف أخواته البنات وأغلق الباب على هنية وطرد زين بعدما علم أنها سبب الوشاية وخرجن وهن يقلن في كراهية:

ـ *سحرت له ابنة العاهرة!*

وفي الصباح استيقظت هنيّة بكامل صحتها وبوجه عفي نضر وقالت له في جملة واحدة لم تكررها:

ـ *خرجها من بيتي*

وفعل وخرج وراءها وهو يدق الأرض بقدميه ونبرته تسبقه ببأس شاء القدر أن ينفجر بوجه أمه:

ـ *حنخرج إحنا الثلاثة!*

وفهمت هنية متأخرة أن ماجدة تحمل طفله.. وعادت لها زين بحكاوي ووشايات أكثر من ذي قبل، وبمساء شتوي قارص قالت وهي تقشر البطاطا الساخنة وتضع الوسادات فوق قدمها:

أعجوبة

ـ *قعدها في شقة الزمالك يا ست وجايب لها خدامة تحت رجليها*

ثم تمصمص شفتيها وتتابع بحسرة:

ـ *حيصرف عليها المال.. اللي عمله الحاج ريحان واتحرم منه ولاد عدلات حيضيعه على اللي ما تتسمى..*

وتبكي هنية.. بكاءً صامتاً دون عويل.. وتتجاهل زيارات شاكر ولكنه تسأله بعد تسعة أشهر عن مولوده وأجابها أنها فتاة، وأنه اختار لها اسماً وبلمعة عين راضية يقول:

ـ *شهد!*

ولا تعلم هنية أن شهد باتت زهرة حياته وأنه أصبح يغيظ ماجدة ويقول لها أنها تفوقت على مكانتها في قلبه، كانت جميلة تحمل بعض ملامح ماجدة وليس كلها.. خصلاتها سمراء مسترسلة وابتساماتها تذيبه، وأخذها في ليلة لـ هنية فقبلت رأسها وباركتها ووضعت في ملابسها عشرون جنيهاً ثم غلبها الحزن فبكت وقالت له بنبرة واهنة:

ـ *مالناش نصيب!*

وفهم أم لا يفهم هو اعتاد، وكانت ماجدة تأخذ رأسه على فخديها، تدلك جبهته بوصفة ماء ورد وليمون وتقرأ القرآن بصوت ناعم حتى ينعس جوار شهد وتنام هي بابتسامة رائقة على صورتهما، تمر حياتها على ذات الوتيرة.. تحادث نجوى في الهاتف مرة كل خمسة أيام وتزور منزل عابد زيارة كل شهر ولا تأخذ معها شهد ولا تسأل نجوى عن الصغيرة، تحتضن جسد ماجدة حتى تفعصه، وتُمَّلس على رأسها وتبكي وتسألها نفس السؤال كل مرة:

أعجوبة

ـ *أنتِ بخير؟*

كانت ماجدة تعود من الزيارة متلفحة بالقلق والغم ومرضت وزاد عليها المرض وغابت خادمتها في وقت ليس بحينه وأحضرت لها مكانها أخرى، كانت عجوز فتبرمت منها ماجدة؛ لأنها لن تتحمل العمل وكادت أن تصرفها فهي تحتاج لِخادمة طوال اليوم وتلك تُصر على الحضور صباحاً فقط. ولكن المرأة بكت بحرقة فبدا جحوظ عينيها وكأنه سيفرز الدماء ومدت يدها المتغضنة نحو رسغ ماجدة بقسوة تُقبِّله وتكرر في ارتعاش مكلوم:

ـ *يخليكي يا ست.. محتاجة يا ست والله*

وحاولت ماجدة أن تهرب بلطافة:

ـ *ظروفك مش مناسبة يا أم .....*

وارتعش فم المرأة ببأس حزين:

ـ *قوليلي يا أم حسن*

وانفجرت مجدداً في بكاء مرير، حتى ظنت ماجدة أنها أنهت على مخزونها من العبرات، زفرت ماجدة في النهاية ببأس راضخ وسألتها في تتمة لموافقة لم تملك غيرها.

ـ *اسمك إيه بقة؟*

ـ *خدامتك عدلات..*

أعجوبة

يقال أن لكل ميت قبل موته صحوة..

واستيقظت بدر!

كانت حُسن تجاور أحمد في الحديقة على أرجوحة واسعة ونبرة صوته لا تحمل سوى اسم زوجته.. مجموعة النصائح الشهرية كما كان يسميها كي يضمن باقي حياته تعيساً، في وسط الكلام وبعد تكرار اسم وجيدة أربع مرات صرخت خادمة ورأوها تركض على الدرج وخلفها عجوز تمسك بعصا المكنسة وهي تصرخ:

ـ *إنتم مين يا ولاد الكلب!*

ولم يفلح أحد في تهدئة ثورتها سوى «**علي**» لأنه الوحيد الذي تذكرت وجهه ثم قالت له بعد أن أعادها نحو فراشها وأعد لها كوباً من اليانسون الدافئ أنها تريد رؤية ماجدة.

وبعد مرور ثلاثة أيام على طلبها وبعدما تردد أكثر من عشرون مرة كلما خطا نحو المنزل الذي حمل بداية عشقه وخذلانه، طرق الباب لتفتح له نجوى وهي ترمقه بحذر مشبوب وتدير بصرها بينه وبين عابد قبل أن تُسقط قلبه بين ضلوعه حين أخبرته أن ماجدة تزوجت منذ عام وفوقه أشهر..

كادت صدمته أن تُخفيه من الصورة، حتى أنه لم يعد حتى مهتماً بتحقيق طلب بدر ولكن نجوى التي ما إن علمت باستفاقتها ذهبت إليها على الفور، بذات الوشاح المعقود والمعطف الأزرق بأزراره الضخمة وعينين تأملتا بدر بانفعال مجنون قبل أن تسقط تحت قدميها وتبكي، وأجابت بدر بوجه صارم كتم تأثره:

أعجوبة

- *عايزة أروح بيتي*

ولم يستطع أحد منعها تلك المرة، حتى حُسن الرافضة رمقتها بيأس ووداع فاتر، حضرت نجوى الحقيبة في سرعة مطلوبة وقام علي بتوصيل كلاهما إلى المنزل وقبل أن تترجل بدر من السيارة نظرت نحوه بتأنٍ وكأنها تحسب الحروف قبل الكلمات وقالت بصوت ثابت:

- *بكرة تيجي وتجيب المحامي*

وصعدت الدرج وحدها، بقوة امرأة ثلاثينية تقوم بواجبات بيت كامل، رأت عابد يجلس جوار الطاولة بجلباب بيتي داكن وبقايا أرز بارد مع خبيزة، فقهقهت بصوت ثخين مسموع حتى اختلج شدقيها وقبلت رأسه في حنان ثم استدارت نحو نجوى بنبرة تلاشى فرحها فجأة:

- *نفسي في خبيزة*

وحضرت لها نجوى أخرى طازجة، وأرز بالحليب والزبيب والكثير من السكر ورأت وجه بدر صبوحاً كالبدر تحت ظلام الغرفة فخافت وأمسكت قلبها عن تطيُّره، أطعمتها الأرز بنفسها وقامت بغلي الشاي مرتين كما تُفضله هي وعابد وسألتها بدر بما خبأته في نفسها:

- *ماجدة مشيت؟*

وأومأت نجوى في عجز ونبرة متثاقلة الأحرف:

- *اتجوزت*

أعجوبة

ولم تعقب بدر، احتضنت كوب الشاي بكفيها المتغضنين وخلعت منهما خاتم ذهبي ثقيل كان قد أهداه لها الباشكاتب حين أنجبت حُسن ثم ناولته لعابد وقالت له بنبرة حروفها واضحة:

ـ *بيعه يا عابد واشتري لصبرية خلخال جديد*

استدارت نحو تيه نجوى لتتمم بسؤال وهي تشير نحوه وهو يغادر كطفل وعقله يتلعثم وهو يعد صبرية برنان.

ـ *كلامه هرب امتى؟*

وأجابت نجوى بمرارة وهي تشيح ببصرها نحو المجهول:

ـ *من بعد ما مشيت ماجدة..*

ونامت بدر هانئة هادئة ولم تستيقظ على كابوس عابد وتجاهلته نجوى فقد كان صراخه هستيري من السعادة، وفي الصباح حضر علي بوجه شارد وانفعال متلاشي حتى أصبح كالمجهول يمرر اللاشيء في نبرة، جلس جوار فراش بدر ومعه ما طلبت وبضعة أوراق وتوقيع يملكه لنصف البيت وهي حصتها التي أعطاها لها عابد، شدت على قبضته ثم ابتسمت وبصرها يزوغ في سلام:

ـ *سامحيني يا ماجدة!*

وسقطت فوق رأسه في حركة واحدة.

ماتت بدر.

أعجوبة

ماتت في لحظة استفاقة مع رنَّان عابد وعويل نجوى.

ماتت فوق صدره وآخر حروفها اسم حبيبته التي حرصت ألا يقربها.

وبعدها بساعة ويُقال أكثر بنصف، وحين اخترقت صرخة فتاة صغيرة جدران البناية الهادئة في فترة ما قبل الظهيرة ولم تسمعها سوى عايدة الأرملة التي سكنت حديثاً ويتحاشاها جميع سكان الحي، وصرخت لحظتها على صادق حارس البناية تسب وتلعن قاسية القلب التي تركت لبكاء هكذا طفلة.

- *دي شقة الأستاذ شاكر!*
- *طيب خبط عليه*
- *الست جوه ومحدش بيرد*
- *اكسر الباب!*

ونالت البناية لسنوات حكاية..

عن الضحية..

ماجدة زاهر الشيخ.

منحورة..

وجدوها ممزقة بسكين مطبخ تحت وطأة ذبح غير مكتمل ونظرة نحو مجهول باتت تعرفه وحدها، وطفلة رضيعة تصرخ وعيناها غير الواعية هي من لمحت القاتل..

نالت البناية لسنوات حكاية.

عن الجاني.

شاكر ريحان العطار.

هارب..

وبات في أعين الجميع قاتلها..

أعجوبة

أعجوبة

١٠

الحلم يحتاج إلى واقع.. والواقع يحتاج لجنون

إنني أعلن أمامكم من هنا.. من محافظة المنوفية.. أنني قد عقدت العزم علي التقدم للترشيح لخوض الانتخابات الرئاسية المقبلة.. وسوف أسعي إلى كسب ثقة الشعب وتأييده لفترة ولاية جديدة.

«**مبارك**».

مدرسة المساعي المشكورة.

٢٠٠٥.

البيت ما زال كما هو، رمادي قاتم أغلقت نجوى سطحه بجنزير، تقول لعابد على العشاء حيث كانت تضع له البيض بالجبن في نصف شريحة وتطعمه إياها كطفل:

ـ *السطح اللي ملعون مش أنت يا عابد*

يبتسم لها باتساع رائق دون صوت ودون أسنان ويمضغ لقيماته برفق ثم يشير نحو جرة ماء فيرتشف منها بنهم وينام على جانب واحد، ولعل

أعجوبة

الكوابيس ما زالت هناك وهو اعتادها أو لعلها ما زالت هناك دون صراخ فهو منذ سنوات فقد صوته.

وعلى بُعد أمتار ليس أكثر وخلف باب غرفتها الموارب تقف بمحاذاة جدار، طويلة بيضاء فائرة بلغت فتنتها قبل الأوان، عيناها تتجول من خلف حواجز النافذة ترمق الحي بفضول أنثى وتختفي لاهثة في قفزة واحدة لأنه شعر بها فعيناه تترصد النافذة بمهارة قناص يوقن لهفة فريسته للبحث عنه!

ـ *شهد!*

نبرة نجوى أصبحت ثقيلة.. مُتعبة.. تمكن الشيب من مقدمة رأسها فأصبحت رمادية كغيم أبيض ألبسوه حداد، عيناها أصبحتا شبه منغلقتان برؤية باهتة ترفض الاستعانة بطبيب، تضخم جسدها بفضل سُمنة متوارية فكانت حين تقف تظهر كعود صلب ضخم وحين تجلس يتناثر لحمها حولها ككتل حيّة.

تنادي شهد بنبرة مبتورة قاسية، وتسحب من خزانة جوارها خيط، تحيك وتحيك كنزة زرقاء جديدة وتقيس عرضها على الكتف والصدر والنهد للذي استدار وبانت ملامحه، تلفظ اسمها مجدداً بنبرة أرق وتعود الذكرى نحو بدر، وكنزة حاكتها من أجلها وقياس مفاتن قلق، فترى نفسها بدر وترى شهد ماجدة.

وعلمت هذا بمجرد أن وقعت عيناها عليها بغرفة مأوى حكومي آخذوها إليه بعد حادث النحر، رفضت أن تأخذها هنية ويُقال أنها فقدت عقلها وماتت بعد ستة أشهر أما شاكر فغاب في خضم مأساة وتحقيقات

أعجوبة

لم تبحث عن سواه، فلم يعد أحد يعلم عنه شيء.

مذنب.. بريء.. ميت.. حي.. لم يتبقى منه سوى صورة وجدتها شهد بالمصادفة في أغراض أمها فخبأتها من نجوى، كل ليلة كانت تستيقظ فجراً تمر على ملامحه وتحفظ تفاصيله وتحاول أن تضيف عليها صبغة السنوات، تبكي وتسأله بحشرجة مكتومة إن كان قد قَتَل ثم تزيد في البكاء حتى تقطعه بيقين متشبث بقلبها أنه بريء وأن نجوى كاذبة، وأن عابد مرر للجميع جنونه..

ترسم له كل يوم في خيالها قصة، فربما هاجر هارباً فوق قارب ويعيش بقصر أوروبي فخم يتابع أحوالها من خلف ستار.. أو هرب نحو حرب لا تخصه فسقط من ذاكرة التعداد، ربما هو هنا يقطن على بعد مبانٍ منها وقابلها أكثر من مرة في المترو والحافلة وزحام مجرى العيون ولَم يعرفها.

وكأن قدرها معه أن يظل الغائب الحاضر يمر على الخيال حينما تحتاجه.

ـ *شهد أنا رايحة السوق*

تقولها نجوى باعتياد مكرر، وتلوك بين شفتيها بقايا حلوى قاسية، ثم تتوجه لغرفتها فتخرج معطفها الأزرق الداكن وقد بات قديماً رثاً، ولكن هي اعتادت ألا تتخلى عن أغراضها القديمة، ففوق الخزانة حقائب جلدية متراصة تقول أن بها أوراق، وملابس، وراديو قديم مُهشَّم، أما في غرفة الاستقبال التي لا يقربها أحد؛ هناك صندوق كرتوني ضخم يحوي عدة صناديق كرتونية مماثلة وصورة شبه ممزقة لبيانو أسود ضخم، فـ

أعجوبة

بوقت ما حلمت نجوى بتعلم الموسيقى.

ترتدي معطفها وترحل للسوق، تبتاع الخبز والطعام بمرور امرأة منسية.. سقطت من الانتباه. فبعد الألفية لم يعد أحداً يكترث بأحد، حتى أن سعاد بائعة الدجاج تقول أن العفاريت باتت تخاف الظهور لأن ابن آدم توحش، وتمررها بنبرة أنثوية خشنة كلغو ذكر:

ـ *اه يا أبلة الناس بقت هي العفاريت*

ونسيهم الناس أو تناسوهم فالنتيجة واحدة، لم يعد أحد يتذكر عابد أو كوابيسه ولا يعرفون عنها سوى أنها عانس عجوز فاتها قطار الزواج لأنها قبيحة.. أو تُشبه شدة الرجال.. وهمست سعاد لمجاورتها بعد أن راقبت رحيلها:

ـ *استغفر الله بيقولوا إنها مخلطة.. خنث يعني.. نصها راجل*

ـ *يالهوي.. دي معاها في البيت بت*

ـ *بنت اختها.. بيقولوا ماتت مقتولة*

ـ *تلاقيها هي اللي قاتلاها.. شكلها يخوف*

ـ *يا ساتر يا رب.. استغفر الله مالناش دعوة!*

وتنتهي ثرثرة.. وفي البيت تضج الجدران بالدنيا.. بشهد..

هي وحدها من فتحت طريق الابتسامة مجدداً لوجه عابد، بعدما وصلت للمنزل بأيام وضعتها له نجوى مضطرة فوق ساقيه لأن اللحم يحترق وقامت لمتابعة الطعام وعادت لتجد الابتسامة متسعة على شدقيه

أعجوبة

وشهد تحاول جاهدة أن تختطف منه لقمة خبز، وحين أصبحت في الثالثة كان يحني ظهره لتركب فوقه ثم ينطلق على قدر صحته مع صوتها كزامور قطار، كان يقوم بتمشيط خصلاتها حين تؤلمها نجوى، ويلمع حذاء المدرسة بكد أعاده سنوات، ينام أمام التلفاز وهي فوق ساقيه ويخبئ من أجلها بقايا الحلوى، وتنفرج أساريره مع براءة ابتسامتها، وإذا تسلل إليها الحزن.. يبكي.

فتجلس جانبه وتملس على رأسه المختبئ تحت قلنسوة بيتية داكنة ببراءة مُنفعلة:

ـ *ما تعيطش يا جدي*

وهو وحده من علم سرها، حين خطت له ببراءة سنواتها الأولى تقص له عن صديقتها التخيلية، فهي تأتي لها في الصباح ويأكلن سوياً الطعمية والجبن ثم تقف صديقتها أمام المرآة وترقص وتغني بصوت مزعج مرتفع وهي تشبهها كثيراً لدرجة أنها تشعر أنها أختها وبهذا الصباح بالتحديد وبعدما استيقظت نجوى وأتمت مجهود الخيط والحياكة وقياس جسدها لا تعلم لمَ تذكرتها، مرت بخاطرها كرؤيا واحدة لم تتكرر.. جلست جوار عابد وأسندت رأسها على عامود الفراش الصلب ثم سألته عنها وكانت تثق أنه لن يتذكر الحكاية فهي نفسها لا تتذكر اسمها ولكنه أجابها بصوت واهن باهت، صوت وكأنه استيقظ من الموت:

ـ *صبرية!*

ثم استدار لها بشكل مفاجئ وبعينيه جحوظ مخيف، يشد بقبضتيه فوق ذراعيها وأنامله تكاد تنغرس في لحمها:

أعجوبة

ـ *لما تشوفيها قوليلها إني جبتلها خلخال جديد!*

وكانت تلك هي المرة الأولى التي يتسلل لها فيها ذاك الشبح الأسود القاطن بين جدران المنزل... الخوف!

لا يرغب أحد في سماع الحقيقة كي لا تتحطم أوهامه.

«فريدريك نيتشه».

«شاكر لم يقتل!».

لا تعلم متى صارحت نفسها بها لأول مرة، هل حينما علمت أنه أبيها.. أم أنه من كتبوا في أوراق هروبه تُهمة نحر أمها.. أم حين تسللت نحو ذكريات أمها فوجدت صورة لرجل، وذكريات لآخر.

كانت أول مرة تعلم عن **«علي»**، وتوجهت بالأقصوصات، ونثر الحب والأحلام بعينين باكيتين ونبرة مرتعشة مسكينة:

ـ *مين ده*

وأجابت نجوى ببرود دون أن تستدير نحوها وهي تتابع برنامج طبخ ظفرت به أخيراً من بين نشرات الأخبار، أجابت بنبرة مُشتاقة نحو زمن مرّ:

ـ *حبيبها*

ـ *وبابا*

وسؤالها كان رقيقاً ناعماً عفوياً ببراءة فتاة تبحث عن كيانها بذكرى مُتَّزنة، والصدى يجيء ويذهب بين ثنايا عقلها.

أعجوبة

«**شاكر بريء**».

«**شاكر لم يقتل**».

وأجابت نجوى من جديد، بنبرة متقلصة مستاءة:

ـ *برده حبيبها!*

وتركتها نجوى للاشيء وخزانة أوراق وجدت بها الحنين، نجوى كفت عن سرد القصص والحكايات، وربما مررت لها فقط ما تريد تمريره.. كانت تأخذها كل عام مرتين في زيارة بدت روتينية لمقبرة، هناك تقف أمام بدر وتبكي فتُخبرها أنها تفتقدها ولكنها على العهد، تقدم لها شهد وتضحك لأنها تشبه ماجدة ثم تبكي لأنها تشبه صبرية، ومن بين التفاصيل تلتقط شهد أصل الحكاية وتعلم أن بدر كانت مثلها مثل نجوى تؤمن بالرحيل وتهرب منه.

وحتى لحظة ظهيرة عادية وقدر ملتهب من الخضار واللحم قارب على النضج ظنت نجوى أنها انتصرت على الكوابيس. وشيدت بحكمة اكتسبتها من بدر جدران آمان صلبة حول تلك العائلة، ستنتهي راضية دافئة في فراشها بموت عادي جميل وستنتهي مثلها شهد..

وسينتهي النسل تعلم.. ولكن بطريقتها هي وليس بنهج صبرية!

كانت تظن.. فعلى بعد خطوات ليس أكثر ومن فتحة صغيرة موارية تعلمت شهد أن تختلسها من النافذة كان هناك.. مجدي.

أعجوبة

والبداية كانت لمحة فابتسامة.. هو يقطن في الشقة المقابلة، له بشرة قمحية تميل إلى البياض مع خصلات كستنائية ناعمة وعينين خضراوتين اتساعها يناسب ملامحه.. أنفه ضخم مفلطح بعض الشيء وذقنه مدببة نصف حليقة بأشواك قالت له فتاة ما من حريمه كما كان يحب تسميتهم أنها تجعله وسيماً.

كل ما تعرفه عنه أنه تخرج منذ عامان من كلية التجارة، وأن أبيه يصر عليه مجاورته في محل الخردوات على أول الناصية لأن عصر القوى العاملة انتهى مواجهاً المجتمع بالبطالة، وهو في البداية رفض وتذمر وحدد أحلامه فقرر سحب وديعة بنكية تبيح له وظيفة مدفوعة الثمن في أحد البنوك. ولكن تعاركت زوجات أبيه وخلفهن خمس أخوات بنات على إرثهن وحق ومستحق فتراجع الأب وعاد بعرض وظيفة الخردوات بقسوة آمرة فقبل لا لشيء سوى أن يعاقبهم ويُمتِّع تمرده فكان المكان بدايته لمرحلة جديدة من العلاقات الغرامية.

أول مرة رآها بها كانت بعد ثلاث أشهر من توليه العمل، قوامها مُهلك كما ثرثر مساعده قصير القامة وملامحها تبيح الحرام. وصرفه بشبه غضب لم يُدرك سببه ولكنه وجد نفسه بعبث مراهقي يقترب، علم أنهما جيران وضرب رأسه لا يصدق أنه كل تلك السنوات لم يلمحها من نافذته فتلك النافذة هي مهد العواطف الأول في المنطقة ولكن بعدها علم أن خالتها توصد منفذ الجنة وتحرص عليها حرص القطة الشرسة فلا تبيح لها تجول وحدها إلا طريق جامعتها مضطرة وهي تذهب يومان في الأسبوع الأحد والأربعاء تخرج في التاسعة صباحاً وتعود في الثالثة، فكان التقاءً بمصادفة محسوبة ضمن له بداية شرارة واهتمام أيقن أنها تحتاجه.

أعجوبة

كانت تتحرك بتلكؤ مضطر على الرصيف بسبب انفجار الزحام في تلك الساعة الصباحية، تضم لصدرها كشكول محاضراتٍ ضخم وتُعلق حقيبة سمراء متواضعة المظهر على جانب كتفها الأيمن، تنظر بحرص امرأة في زمن المتحرشين للمحيط حولها، وتُجاهد بتأرجح بين يمين ويسار لمفاداة دراجة تزاحم المارة، وبائع يرص كراتينه على بقعة فارغة كانت تخص الرصيف، أما صاحب محل العصير فوضع كراسي بلاستيكية وشيشة وكتب له ابنه الكبير لافتة ضخمة كُتب عليها.

«الوكنة ومسح العربية ب ٥ جنيه».

العالم أصبح مُزعج كما تقول نجوى، هو بالضبط كما تعبِّر بعامية مستاءة.

«إيه الكركبة دي!.

وبعد دقيقة من معاناتها أو اثنان كان هو هناك على الجانب الأقرب لمسارها، يختلس بتأني من ملامحها نظرات.. لها وجه جميل صغير وملامح متناسقة بفتنة مطلوبة لطموحاته.. عيون مسحوبة واسعة وأنف صغير مستقيم وشفتين بهما تناقض ممتع فالعلوية رفيعة رقيقة بمقدار بريء النوايا أما السفلية فسميكة بانتفاخ آثم.

اعترض طريقها في ثقة وقرار لم يستغرق منه ثانية واحدة.. تُجاهد في مرور جديد أمام المحل وتحاول جاهدة أن تتحاشى اصطدام بثلاث شبان كانا يدفعان بعضيهما البعض في بداية معركة، جزء محسوب من خطة رخيصة مكررة هي ألطف من أن تدركها.. جذبها لداخل المحل في لحظة بدت دفاعية وضم حاجبيه في اهتمام لطيف بعدما زعق في «شوية

أعجوبة

العيال» كما أطلق عليهم وتابع في اهتمام دافئ:

ـ *أنتِ كويسة؟*

وأومأت بارتعاش ومحاولة هروب لم يمرر له فرصة، رفعت بصرها نحوه فوجدته يرمقها بجرأة لا تفوت منها تفصيلة، يمر بعينيه على ملامحها ببطء مدروس ويمرر من بين تأملاته حقيقة أنه يحتجزها بقصد.

ـ *عن أذنك*

ـ *شهد صح؟*

أومأت من جديد، بذات الارتعاش والهروب اليائس.. أما هو فمد كفه بلطافة تبيح البدايات البريئة لكل فتاة مثلها.

ـ *أنا مجدي.. جاركم على فكرة*

وتلك المرة أباح لعينيه التهام ومرر بداية فتحت الطريق نحو مغامرة جديدة كانت ما يجول بخاطره، وفِي المساء راقب النافذة بمهارة قناص.. كان يثق أنها ستظهر، ربما الليلة.. بعدها.. بعدها.. وحين اقترب صبره من النفاذ لمح خيال ضعيف يتحرك من خلف النافذة فعلم أنها تبادله المراقبة.

وبدأ يمرر اهتمامه بالبدايات المعهودة، نظرة متزنة تبيح اطمئنان، وأخرى مُشتاقة تبيح اللهفة.. ومن خلف الشق الصغير من احتجاز نجوى اعتادت أن تلتقط عينيه وتحفظ تفاصيل انفعالهما. هو في البداية يبحث ثم يلمح فيجد ويرتاح، والراحة في قاموسه حرية تعبير وتعبيره منسجم مع رجولته فظاهره عابث وباطنه ثقة وبثره خيال مثير.

أعجوبة

ومع حلول الظلام تتهالك نجوى فوق الفراش، تنام من بعد صلاة العشاء وتستيقظ مع خيوط الفجر وشهد لمنتصف الليل وحيدة، انتبهت أنه يضيء نور غرفته ويغلقه ثلاث مرات واستوعبت بعد يومين أنه يرسل لها إشارة فتحايلت على القفل وظهر رأسها متردداً من خلف النافذة لتلمح تفاصيل وجهه تحت انعكاس الظلام في حضور يبحث عنها وكان ذلك شعوراً لا تعرفه.

وثاني صباح وجدته أمامها وجهاً لوجه، كانت تخرج من الجامعة بين صديقتان لا تربطها بهم معرفة واسعة، ولكنه لم يكن يعلم هذا.. هو تقدم بثبات واثق ونادى عليها وكأنه رفيق سنوات:

ـ *حنتأخر يا شهد*

ودون أن تمتلك حسن تصرف وجدت نفسها تحييهم لتتحرك خلفه.. ثم جواره.. وأمام واجهة محل وجبات سريعة توقف بشكل مفاجئ واستدار لها ببساطة قريبة من القلب:

ـ *أنا جوعت*

واختار لها على ذوقه، ولاحظ أنها لا تعرف المكان.. بل أنها لأول مرة تتذوق هذا النوع من الأطعمة.. وأعجبها المذاق ولكنها خجلت من إظهار ذلك فتوقفت عن المضغ ثم رفعت بصرها نحوه بشكل فجائي وكأنها تراه لأول مرة، أو اختطفها في لحظة غفلة.. ولَم يعطيها الفرصة للهروب، أو حتى لاستدراكه.. استلقى فوق مقعده بأريحية ساحرة وقال لها في كلمة واحدة دون مقدمات:

ـ *أنت جميلة*

أعجوبة

كانت أريحية واثقة ذئبية بتفاصيل لا تُدركها، وبداية لكلمات كثيرة من قاموس عاطفي ضخم لم يكن لها علم بمفرداته، وظهرت عليها علامات الحب.. فهي دون سبب تبكي ودون سبب تضحك، تستيقظ بصباح عطلتها مبكرة وبيوم دوامها تنام، تراقبه من خلف نافذتها وتختفي في خجل متورد حينما يمرر جموحه بعبث جريء، وقُبلة طائرة تنتفض قبل أن تصيبها ولكنها تضحك.. وبرقة تبحث عن عابد وتعد من أجله مثلجات المانجا وتعده أنها ستصلح الخلاخيل، فتنهرها نجوى ولكنها تسيطر على غضبها بابتسامة عذبة، وتتوجه نحو التلفاز فتدير قناة غنائية على صخب ما وترقص.. ترقص بكل أنوثة ناعمة أخرج الحب نبض فطرتها وترقص بكل بهجة متاحة كان هو الباحث عن مصدرها وترقص حتى تتلاهث أنفاسها من التعب، فتجذب نجوى التي ترفض وترفض وتعترض برمادية رأسها الجامدة، ثم تستدعي الأحباء في لحظة غافلتها فترى حولها بدر، وماجدة، بدرية، وصبرية الحاضرة في ملامح شهد.. تستمع للموسيقى وتنسى فتهز جسدها وذراعيها ورأسها في حركة واحدة، ثم تدور نصف استدارة، فتجد في وجهها عابد فارداً ذراعيه كطفل عجوز ومحركاً جسده بدوره في عشوائية مبتهجة ولأول مرة.. لأول مرة منذ وعيت عيناها عليه تقرأ بعينيه لمحة سعادة..

بل لأول مرة وسط تلك الجدران تمر لمحة شاملة من الفرح.

أول وآخر مرة..

- *نجوى*

وهكذا كانت تناديها، لم تقل خالتي ولم تعتاد ماما نجوى.. هي نجوى وفقط.

- *نجوى!*

أعجوبة

وتكررها شهد وتبتلع ريقها ثلاث مرات بتردد همس ليلي قررت البوح به في لحظة صدق فاشلة.

ـ *نجوى.. أنا بحب*

وتوقفت البهجة.. للأبد!

قرب آذان الفجر يستيقظ الحاج عبد الله ليلحق بركب صلاة الجماعة، يقف بخشوع بين متجاوري الصف الأول ثم يرفع يده بعزيمة صادقة بدعاء الرزق والرضا وحفظ عزوته،كان رجلاً ضخم الهيئة.. سنوات عمره قاربت على الستون ولكنه فتي كما تردد آخر زوجاته بنبرة توقظ بجسده الحياة.

«لسه بخيرك يا حاج».

تزوج أربع مرات، الأولى كانت ابنة عمه.. كانت جميلة تشبه بنات الخواجات كما وصفتها أمه.. جسدها رقيق ضعيف لم يتحمل قوته ليلة الزفاف ولا الليالي التي بعدها فبكت لأمه مرة ومرة والكثير من المرات وبطنها تكبر بابنه وقبل ولادة مجدي بليلتين كان قد كتب على الثانية، وتقول خادمة منزله أن بهجة وكان هذا اسمها زغردت ليلتها من الفرحة ولبست ثوب نوم جميل أبيض ثم نامت في هناء!

ومع الثانية فهم حلاوة الزواج بمنظور آخر غير نفور بهجة، ولم يلمها ولم يغضب منها أبداً فهي الوحيدة التي أنجبت الولد، لا الثانية ولا الثالثة

أعجوبة

جادت بطونهم بأكثر من البنات أما الرابعة فاشترط عليها ألا تُنجب وكان يبحث عن دلال آخر لا تجيده باقي النساء ولهذا اختارها عاهرة بعد نصف خدمة في بيت سنية عشر نجوم كما يطلقون عليه وكتب عليها في الحلال بشرط التوبة عن الرجال والعُهر وادخاره له وحده!

وهكذا نال عبد الله ما نال من الخجل واللطافة والعقل والعُهر، ولم يفرِّق بينهن أبداً.. كان عادلاً فلم يحبهن جميعاً بمقدار واحد!

ورقدت بهجة في سلام بعد أن أيقظته بنصف عزيمة وقضت فرضها بنصف يقظة لتحتضن بعدها الفراش بتعب وتقسم في سرِّها أنه لن يعود، سيصلي الفجر ويذهب للرابعة فهي من تجيد خداعه بعد هذا العمر. عقلها لا يُفكر سوى في مجدي وأخلاقه التي تغيب دون عودة مع مباركة أبيه فهو سيكون غضنفر عنتري مثله.

ومجدي كان على بعد خمس بنايات يستند على قاعدة فراش رجلاً آخر ويختبر كمال الرذيلة مع خائنة.. عرفها منذ أشهر وكانت بداية تطلعاته نحو مزاج مختلف، فبعد فتاة وخمسة ثم عشرون تصبح اللقاءات متشابهة لدرجة الملل وينفجر نهمه فلم يعد يشبعه تلامس الأيدي ودفء العناق ولا القبلات، تنتفض رجولته إلى ما هو أكثر ويتعثر في مصادفة ممتلئة ترتدي عباءة سوداء مخصرة، تتجول بين بضاعة تجارته، كان اسمها رغدة وهو الخامس في عشاقها أما هي فامرأته الأولى، ونال منها ما ينال الرجل في كمال شهوته فأعجبه الأمر وصارح نفسه بأنه يريد شهد، يريد براءتها وحماقتها، كمالها وجمالها، ولم يكن حباً بقدر ما كان نهم اشتهى الكثير من الدنيا، الكثير من الجسد، والكثير من العاطفة.

أعجوبة

وعاد مخدراً من نشوة باحثاً عن أخرى، نشوة عاطفية.. ولكن لا مانع إطلاقاً من تمرير أحلامه الخاصة، تصورها تخرج معه في اليوم التالي، ترتدي ثوباً ناعماً فضفاضاً توقفت المصانع عن إنتاج أمثاله، فهو مكشوف الصدر والذراعين، قصير لا يكاد يتعدى منتصف فخدها، وله فتحة طولية من الظهر تخدع البصر بمرور شفاف.

خيال أقرب لغلالة نوم كتلك التي كانت ترتديها خائنته، ولكنه يُصِّر على أنه ثوب.. وهو جميل.. منتقى.. مناسب لجسد شهد بقياس خياط ماهر. وبدا لنفسه أنه قد اتخذ قراره بالفعل.

ذكراً.. قوياً.. مسيطراً.. منفرداً.. تتمناه النساء والفتيات على سواء وهي أولهم، وشعر في تلك اللحظة أنه يستطيع سماع أفكاره، أحلامه، وأمانيه..

ظلامٌ صغير انتوى أن يبدد ظلام كبير، وخيوط شروق مختبئة قاربت على الحضور، تكاد تكون تلك البرهة من الزمن هي راحة البال القصيرة التي اقتنصها الحي من البشر.

باستثنائه..

وباستثنائها..

لم تكن إحدى زائرات واقعه أو أحلامه.. كانت قاسية الطلّة، بغطاء يخفي نصف وجهها وجسد متلفح بسواد شبه قاتم، وبين الأنامل نصل..

أعجوبة

أعجوبة

١١

صاحبة الرنان

الحب يجعل كل ما حولك جميلاً، صافياً.. نقياً.. ذلك لأن النساء في الحب ترتدي الأبيض، وتتعلم صنع الكعك، وتخطط حياة كاملة من أول نظرة.

عصفت برأسها أفكار لطيفة كلها تحمل للجميع نجاة، فعابد سيرافقها.. حتماً هي ستتزوج مجدي وسيختار لها منزلاً صغيراً وستطلب منه غرفة فاتحة الجدران مُبهجة لعابد فجدها لم يعد يحتمل مشقة الكوابيس، أما نجوى فسترضخ في النهاية وتوقن أن الدماء وهم قبيح احتل عقلها في لحظة مصادفات قاتمة.

كان نصف وجهها مستريحاً على الوسادة، والنصف الآخر يتوتر بابتسامات مترددة بين ظلام وبقعة ضوء تتسلل من النافذة، تبيح السهر والقلق ونبرة صوت اخترقت الجدران ببداية فحيح ثم ركض وزعقة.

صراخ..

ضجة يائسة.

أعجوبة

وامرأة تقبض فوق عنق فتّي والحروف تتوعد الجميع بحضور سكين صدئ.

ـ *إلا شهدا!*

وبُتر الحلم في أقل من ثانية، كانت تسقط على الدرج حافية، تركض بشعر مشعث وجلباب بيتي نحوهما، تلمح عينيه المنتفضتين دون تصديق وعويل أمه على بُعد أمتار منه، ونجوى قابضة ساخطة فوق عنقه كرسول الموت وصوتها يشج السكون والأحلام والحب!

ـ *إلا شهد..*

وتركته لاهثاً بعد أن حققت مبتغاها، رمادية خصلاتها تناثرت بغوغائية شبح انتفض من الموت وعيناها جحظتا في حمرة مُرعبة طفت على المقلتين والأجفان والمنطق.

ـ *إلا شهد*

تاريخ استدعته همسات، وصراع بين العقل والوساوس، تفسير فتبرير ثم كلمة..

بيت مجانين ونبوءة بنحر نساءه.

صبرية.

عابد.

قتل.

ربما خيانة!

أعجوبة

وسقطة جوار قدم نجوى ولأول مرة تنطقها.. بتوسل وشهيق ثم نحيب.

ـ *خلاص يا خالتي.. سيبيه أبوس إيدك.. سيبيه*

ونجوى فوق رقبته بجنون تخطى الجميع، تحيط به بذراع صلب وتثبت سكينها بالآخر والبصر يموج محذراً كل من يقترب، تنهدت شهد بين بكاءها وأنينها، مدت أناملها الرفيعة في توسل صامت ومقلتين تقدمان فروض الولاء والطاعة والتصديق.

ـ *سيبيه يا خالتي*

وببطء سحبت ذراعها عنه.. خففت من حدة قبضتها وخلصته لتكون هي مكانه، فلم يفوت ثانية وانطلق يركض بتعثر تشبث بالحياة، غاب في لحظة وبعدها غاب للأبد..

أما نجوى..

شهد..

المنزل وعابد.

بات الجميع الآن متذكراً الحكاية وأطلقوا عليها صاحبة الرنان.

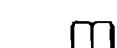

صدق فقط نصف ما تراه، فهناك وهم مختبئ خلف كل حقيقة.

- *الوهم.. الوهم هو وعيك المزيف اللي بيحدد اختياراتك، «بيكون» بيقول إن العقل البشري ليه ٤ أنواع من الأوهام.. القبيلة، الكهف، السوق، المسرح والأوهام دي هي اللي بتشوه الواقع بتاعك وبتبدل شكله*

ووضع قلمه على الطاولة في تثبيت منتصب قبل أي يضيق نظره عليه في تركيز ليسقط القلم بعدها بعشر ثوانٍ وعاد لتلاميذه بنظرة ثاقبة:

- *نصكم شاف إن القلم مكانش ثابت من الأول وكان لازم يقع وربعكم متأكد إني مررت تيار هوا فوقعه أما الربع الأخير...*

وتلونت فوق شفتيه ابتسامة ساخرة قبل أن يهمس بثقة مسيطرة متابعاً:

- *الربع الأخير متأكد إني عندي قدرة غير مرئية هي اللي وقعت القلم*

وقفز فوق الطاولة الواسعة ليجلس فوقها بحركة مرور خاطفة من الخلف للأمام وسبابته تنقر فوق صدغه الأيمن بينما يقتنص جميعهم بنظراته:

- *الوهم هو اللي بيحرك عقلك، هو اللي بيوجهك.. وكل واحد فينا عايش في وهمه الخاص.*

انتهت محاضرة، وقطيع غير قادر على الفهم!

حين جلس على مكتبه وحيداً باستراحة الأساتذة تجاهل سُعال

أعجوبة

دكتورة وفاء في مطالبة إنسانية ببتر تبغه وزعيق دكتور عزيز عن طلاب جيل الألفية الفاشل بتوقيع المنطق وأنثربولوجيا الواقع المختَّل. ومخطئ عزيز في تمرير الواقع كورقة بيضاء واحدة نص فيها المنطق قوانينه فداخل كل شخص منا وبأعمق ثنايا عقله خلاياه الخاصة من الخلل!

كان نهاراً يجب أن يمر كما العادة، محاضرة علم النفس الفسيولوجي لطلاب السنة الرابعة الذي عادة ما يحولها إلى درس فلسفة!

سرقة من الزمن هي التوصيف الأفضل لتلك السويعات التي يقضيها هنا بكلية الآداب، فهو معهم يغرد منفرداً بنشاز خاص بعيداً عن رائحة المرض والفورمالين والمعاطف البيضاء المتحفزة لنبش جثة.

هناك يتحدث عن المريض والمرض، أما هنا فيتحدث عن النفس.. عن الإنسانية. ففي علم الطب هناك ناجٍ ومريض، أما في علم النفس فكلنا مرضى.

ـ *دكتور حفظي!*

وقطعت أفكاره وقهوته عاملة سمينة لها صوت يشبه مواء القطط الشرس وأكملت بنفس النبرة.

ـ *في طالبة عايزاك.*

هو.. أستاذ دكتور حفظي عبد السلام أستاذ مساعد الطب النفسي في جامعة القاهرة والمحاضر المنتدب في كلية الآداب جامعة القاهرة قسم علم النفس وخبير علم النفس الجنائي.

أعجوبة

وهي..

ـ *شهد ريحان العطار*

قهوته كانت ثقيلة دون سكر، وأوراق كانت متناثرة جوار أفكاره نحَّاها جانباً وهو يتأمل زائرته بنظرة قاتمة.. هي على الأغلب إحدى طلاب الصف الرابع وهذا قطيع عشره يُحاول أن يفهم ثم سيدركون في النهاية أن المجتمع سيُبقي عليهم كقطيع، يحدد لهم خرافاته الخاصة خوفاً من أن ينفرد أحدهم بوهمه فتنقلب الدنيا!

نهاراً عادياً ولم يظن أن هناك شيئاً في الحياة قد يبيح اختلافه، أنت حين تقطن في الروتين تعتاده.. تعتاده لدرجة الهلع من تبديله.

ـ *دكتور حفظي..*

صوتها كان أنثوياً رقيقاً بدا من تلعثمه أنها فكرت ألف مرة قبل أن تجلس على هذا المقعد، أنها ربما لأول مرة تحضر محاضرته أو تمرر انتباه، رغم أفكاره كان وجهه جامداً دون انفعال.. وجهه ضخم بثنايا متجعدة على شكل خيوط ممتدة تجاور فكيه وشفتيه رفيعتين لدرجة أن حضورهم غير موجود. شعره أسود حالك باستثناء بقع رمادية تناثرها عشوائي كبقع أما عيناه فـ صارمتان كغروب شمس سيكون الأخير.

هو مخيف كشيطان.

إلا أن لون شمسه يبيح طلة ملائكية صادمة.

ـ *أنا.. شهد ريحان العطار*

ـ *تشرفنا*

أعجوبة

وكان ساخراً بتعجل، فوقت الإنسانية انتهى لأنه ببساطة المعاطف البيضاء تنتصر..

أما هي فعادت من جديد لتلعثمها، لتفكير الألف مرة، قبل أن ينتفض سؤالها ببحة يائسة:

ـ *هو الوهم ممكن يقتل؟!*

ومع صمته.. دهشته.. نظرة عينيه القانصة لحالة!. كررتها بعزيمة أكبر ونبرة صوت ثخينة تكاد تُقارب خاصة نجوى.

ـ *هو الواحد ممكن يقتل بسبب الوهم؟*

كان سؤالاً لابد له من إجابة، والوضع هنا قد يكون بمثابة حالة مرضية مكررة أو اختلاف يستحق التجربة. طلب منها المرور على مشفاه الذي افتتحه حديثاً بأحد أحياء المعادي، وانتظرها وأيقن بعد ثلاثة أيام أنها لن تأتي فنسي بشأنها ولكنها جاءته بعد ثلاث أشهر تحديداً سبعة وستون يوم.

جاءت بعد أن أهلكت الكوابيس نجوى بصراخٍ يومي مكرر ونبرة تتوسل امرأة ما ألا تقتلها!

ـ *ما الأسوأ من الموت؟*

ـ *الحياة*

ـ *وما الأسوأ من الحياة؟*

أعجوبة

ـ *انتظار الموت!*

أنيس منصور.

ـ *البداية؟*

ونبرته كانت هادئة.. لطيفة بحلة رمادية قاتمة وعلبة شوكلاتة من نوع دافئ حميم قدمها لها في كياسة، رفضت ولكنها تشبثت بكوب العصير فتجرعت نصفه دفعة واحدة لتمر من بين شفتيها نبرة مهذبة ضعيفة:

ـ *شكراً*

ومع صمته ونظرته المترقبة أيقنت أنها هنا لكي تحكي.. كي تمرر ما جاءت لأجله، مسرح سوق الرنان بكهف نجوى الخاص ومباركة خلاخيل عابد!

بداية عن صبرية والعاشق والرنة، بدرية التي نُحرت في تأكيد لعنة.. وماجدة التي رفضها علي فنجا من مصير شاكر. وارتعشت بانتحاب ضعيف وكأنها تُعارك عينيه التي أبت التصديق:

ـ *عارفة.. حتقولي وهم*

ثم أكملت بيأس زاعق:

ـ *الوهم هو اللي خالتي مصدقاه، إن كل واحدة فينا بعد ما حتتجوز.. جوزها حيدبحها*

ـ *الوهم هو اللي شيل أبويا دم أمي*

ـ *هو مجدي اللي هرب.. هو علي اللي باع..*

أعجوبة

وضمت رأسها بوجع من يود التخلص من أفكاره، قبل أن تتنهد في زفير ممتد وهي تعود لتلك اللحظة السوداء التي مررت فيها نجوى السكين فوق عنق مجدي، تحاشهم الجميع.. باتوا يلقبون نجوى بالمجنونة، وبيتهم بيت صاحبة الرنان ومرقد العفاريت، تزوج مجدي من فتاة من عائلة أمه رآها في حياته مرتين وترك الحي ووفر له أبيه وظيفة البنك.

أما هي فطفت الأيام حولها بمرور مكرر، يوماً بعد آخر شعرت أنها بدورها ستتحول لنجوى.. تؤمن بنحر مصيرها على يد رجل وتهرب من القدر ظانة أنها منتصرة. حتى جاء يوم تبدل فيه كل شيء، مجرد محادثة تليفونية من صوت لا تعرفه ولكن الطلب كان يجب ألا يُرَّد، فخادمة أمها السابقة على فراش الموت ولها في جعبتها اعتراف، وكالعادة ضمير استيقظ بعد الرحيل.. والحكاية عن عجوز حاصرتها لأيام وأشهر وكافأتها بحفنة مالية مُنقذة وكذبة بيضاء بسيطة تبيح رحيل خادمة وقدوم أخرى، وعندما وقع المحظور وتسابقت الجرائد لنشر خبر النحر شعرت بالهلع فكتمت شهادة حق كان يمكن أن تحتجزها بين قضبان خاصة بعد أن اختفت الأخرى وكأنها لم تكن.

ورفعت كفها المتغضن تجفف بكاءً مثيراً للشفقة والقرف، ونبرة منتهية الصلاحية صحوتها حقيقة متأخرة:

- *كان اسمها عدلات.. وجوزي عرف بعد كده إنها كانت مرات الحاج ريحان وأم أخوات شاكر بيه اللي ماتوا*

ولم يحتاج الأمر لتتمة.. هي نفسها لم تمكث لتسمع مزيد، تحركت بخطوات باهتة لا تدرك هل عليها أن تفرح أم تحزن.

أعجوبة

لسانها يكرر تحت وقع عبرات منهمرة.

ـ *شاكر بريء..*

همس ثم صراخ فوق أذن نجوى.

ـ *شاكر بريء..*

ورغم الوجع هي سعيدة، تسقط نبوءة صبرية.. تسقط كوابيس عابد.. فشاكر لم يقتل.. ولا توجد بنساء عائلتها لعنة، شعرت براحة مؤقتة وتوجهت نحو غرفة عابد فاحتضنته مملسة فوق رأسه بحنان:

ـ *نام يا جدي!*

واستدارت لنجوى، مررت لها الخبر بالوجع والانتصار وأسقطت عالمها في حروف، فلمحت في وجهها شبح هربت منه الحياة والمنطق واللون.. حقيقة تبخرت كسراب وعقيدة يود الواقع أن يهشمها بأسوأ صورة.

ـ *لا..!!!!!*

وكانت آخر لغة مفهومة منها، فبعدها غادرت الكوابيس عابد واستقرت بغرفة نجوى، تستيقظ يومياً بنفس الرعب والهلع والصراخ.. تمسك بعنقها في ألم نحر تختبره كل يوم ويقين بأن عاجلاً أم آجلاً مقتولة سواءً بيد رجل أو بيد امرأة.

وتكررت زيارات شهد، كل مرة تمرر تفاصيل من الحكاية.. تحكي وتبكي وتنال ارتياح مؤقت حتى تعود من جديد بصمت منزل الرنان وضجة كوابيسه وصراخ نجوى، ولم يكن حفظي يعرف أي مريض عليه

أعجوبة

أن يواجه.. نجوى أم شهد، وحين طلبها منها صراحة ضحكت شهد بيأس هستيري تمرر المستحيل فأقنعها أنه سيقوم بزيارة.

وتأخر.. أو تأخرت..

لا يعلم أحد.

كانت ظهيرة قارصة البرودة، أعادها المطر قبل أن تتمم مشوارها.. فتحت الباب ببطء لم تود أن يقطع قيلولة أحد فنجوى أصبحت تنام نصف اليوم وعابد يموت ببطء في فراشه، ضغطت فوق رأسها بألم يحتاج حبة مسكن وهروب في صيغة نوم، ومع خطوة فأخرى لمحت خيال.. بابٌ نصف مغلق..

سيقان طويلة ممددة..

وبركة دماء حمراء قانية ضخمة..

وجوارها عابد، بين يمناه سكين مطبخ تعرفه وعينيه تبكي جوار منحورة.

صبرية.. بدرية.. ماجدة.. نجوى..

هي!

صدى الأفكار قاتل.. مزعج.. سخيف، يبيح التصورات والأوهام والهلاوس.. لا ليست أوهام.

حفظي قال أن الوهم نصف الحقيقة والحقيقة نصف الوهم، كل منهما سيضمن للآخر بداية.. أو نهاية.

قال أن الوهم من صنعنا نحن لنبرر به لامنطقية الرواية.

قال أن الوهم خرافة ونحن من صنعناها.

اقتربت منه وأحداث تاريخ ترقص بينهما، صبرية كانت يجب أن تموت.. ونسلها واحدة تلو أخرى..

صبرية من حقه وسيأخذها مرة وألف مرة والمجد لكابوس متصل تحت وقع الرنان!

فالقتل حاضر والموت حاضر لكننا فقط نجهل تفاصيله..

النحر واحد.. والقاتل واحد..

«**عابد**».

وكل ما تتذكره بعد تلك اللحظة خيال، لعنة حلم.. جنة.. كابوس.. لا تعلم.

اتجهت نحو الموقد بخطى بطيء وتركت الغُلبة لغاز ناعم ينهي الرواية بأبطالها البائسين، ألقت نظرة متألمة أخيرة على وجه نجوى المستريح في سلام ميت وتوجهت نحو فراشها لتموت في دفء!

أما هو فترك السكين جانباً، لامس مفاتيح الموقد في انتصار مزيف ثم نام جواره في سلام!

انتهى الكابوس للأبد.

١٢

النهاية

كان هذا كله حلمًا، أليس كذلك؟.

ما الذي كان حلمًا؟.

وقرأتُ في عينيها: كان يمكن أن نسعد معًا إلى الأبد».

فيودور دوستويفسكي.

الطريق نحو الماضي يبدأ بمفتاح صدئ لا أحد يود استعماله.

جواره على الفراش، شاحبة، باردة كمنحوتة صقيع ابتلعت روحها العاصفة.. علها تطفئ الجحيم.

ـ *قتلتيه*

وكان جواباً لا سؤالا، لنفسه ليس لها.. والتتمة أن عابد يستحق الموت، ولكن بتلك اللحظة وبهذه الفجوة الزمنية التي ابتلعت كلاهما لم يكن هذا ما يشغل تفكيره، كان يفكر بها هي، شعر أنه يجب أن يقترب وأن القدر يدخر لهما تلك اللحظة، استقام فتحرك بخطوات محسوبة نحو البرواز ينظر إلى فتنة صاحبته، ويتمتم بهمس ما زال على وضعه في

أعجوبة

الماضي والشجن:

ـ *الحكاية بدأت عندها.. صبرية*

ثم استدار نحوها بملامح متهللة:

ـ *والحكاية خلصت يا شهد*

رفعت عينيها تتأمله وإن كان يبدو مهتزاً نتاج التعب واليأس والعبرات، سألته في ضعف وكأنها تتشبث به كفرصة حياة:

ـ *خلصت؟*

ـ *أيوة خلصت*

ـ *وأنا*

ـ *تستحقي الحياة*

ـ *قتلته*

ـ *يستحق الموت*

وكان تأكيداً حمل خطوات عائدة نحوها وقبضتان أحاطتا ذراعيها بحنان.

ـ *خلاص يا شهد.. عايد مات وماتت معاه لعنته.*

التوت شفتيها بوجع وهي تنظر نحوه باحتياج وتكررها من جديد:

ـ *قتلته!*

ووجد نفسه دون ترتيب يسحب رأسها نحو صدره بعنف وكأنه قرر أن يرسم بطولة علي لأجل ماجدة، بطولة كل رجل لامرأة تحتاجه. همسه

أعجوبة

خرج مبحوحاً مدمجاً بأنفاس متعبة وجدت راحتها جوار عبقها.

ـ *كانت حالة يأس.. كانت حالة يأس يا شهد*

أمسك بصورة ماجدة القديمة التي وُجدت متجعدة بين أصابع أبيه، بدا متشبثاً بها لآخر لحظة، وكأنه قرر عبور الجانب الآخر معها.. أو إليها. سألها في شجن وهو يشير للتوقيع الخافت على حاشية الصورة «**صاحبة الرنان**».

ـ *كتبها قبل ما يموت.. كان مصدق*

وأجابت بشبه ابتسامة شاردة والعبرات تتجمع بمقلتيها مثل مولد نهر:

ـ *أنا أوقات بصدق!*

وأيقن أنها مثلهن، تحمل في جزءٍ منها شذرات من وهم الحكاية، احتضنها وكأنه قرر أن يهرب بها من الكابوس.. احتضنها وهمسه يدق فوق عنقها وأذنيها بعزيمة مُخلِّص ترك الهامش لأن الواقع يحتاجه.

وبين جدران رمادية حملت ما حملت من الأحلام والكوابيس والوجع كانت الصورة على ما تبدو هو انتهاء حكاية، أو بدايتها..

انتصر المنطق وزُهق الوهم ونال المسكين عقابه.

وسقط رجل في هوى امرأة، ليأخذ بيدها نحو ما ظنوه بداية.. أو نهاية يجب أن تكون سعيدة.

بعد مرور عشر سنوات.

أعجوبة

تجلس باسترخاء غير مكتمل فوق مقعد خشبي مبطن وطاولتها الصغيرة الموضوعة في الشرفة، بيُمناها قدح بابونج بارد عودت نفسها أن تشربه في الصباح وبيُسراها الجريدة.

الأهرام الحادي عشر من يوليو ٢٠١٢.

كل أول شهر ميلادي تراقبها ضحى من خلف الزجاج، وهي منفردة بنفس الجلسة، تطوي الجريدة بحرص بعد مرورها على سطور معينة ثم تُخفيها وكأنها لم تكن، وكأن لا أحد يعلم!

ترمق نفسها في المرآة فتلمح امرأة غريبة عنها وإن احتفظت بنفس الكادر، هاجمت وجهها الخطوط بشراسة وذبلت عيناها وأمها تقول من كثرة البكاء على من لا يستحق، وهي لا تتذكر متى بدأت في البكاء بالفعل.. هل حين تلقت منه مِحة مترددة خبر زواجه بعد أن غاب عنها أسبوع كامل وعاد بابتهاج نفسي أحمق يخبرها ببساطة أنه وجد نفسه، أم ربما حين قرأت الجريدة..

أهدت جوفها رشفة أخرى باردة ثم تأكدت من عد نقودها جيداً قبل أن تخرج وتوجهت بخطى ثابتة نحو موعد زيارتها الشهرية لمشفى الوادي النفسي!

هناك تراه.. يرقد منكمشاً على وضع جنين بغرفة تسعينية الزوايا، جسده بات هزيلاً لدرجة أصبحت معها تصعب رؤيته من تحت الغطاء، عيناه باهتتان تسقط من تحتهما دوائر رمادية غائرة على شكل سحابة حزن، وجهه يتقلص بألم غامض سُرعان ما يفتر ليعود بعدها لفجوة هذيانه.. ينام.. بل يغفو لنصف دقيقة تبدو وكأنها مرت ببطء ساعات

على كابوسه، ثم يستيقظ بوجهٍ شاحب وعنقٍ مختنق ويبكي متوسلاً إحدى الممرضات أن تُحضر له رنّان!

الساعة كانت الواحدة بتوقيت القاهرة، وتوقيت حفظي.. وتوقيتها هي.

واللاشيء بالنسبة إليه!

تقلصت ملامحها بألم وهي تحدق في وجهه، كان قد استقام واقترب وبات لا يفصل بينهما سوى الحاجز الزجاجي. خُيل إليها أنها تقرأ في ملامحه كل ما حدث، بالأحرى آخر سطور قرأتها بمصادفة عنه في جريدة توقفت عن شراءها من حينها.

«العثور على ربة منزل مذبوحة في منزلها والزوج المتهم الأول!.

رعشة مكتومة مرت بجسدها ككل واستدارت ترفع بصرها نحو مجاورها، وكان طويل القامة يطل بجسده على المشهد بهيبة مُقبضة.

- *دكتور حفظي*

- *مدام أميمة*

تحية فاترة عادة ما يبترها الطبيب وينسحب بذريعة مرضاه ووشت به ممرضة أنه لم يعد يمتلك الكثير منهم، بل يكاد لا يمتلك أحد!

على مدى سنوات وهي تذهب إلى المشفى، ترمق من كان زوجها بحسرة وتسقط اليوم من الذاكرة لتعود خادعة نفسها أنها ستستكمل الحياة وكأن شيئاً لم يكن، وكأنه لا توجد فتاة محتجزة بدار رعاية ما على بعد كيلومترات ويشاء القدر أنها شقيقة أبناءها. تلك المرة جاورته

أعجوبة

في عزيمة تنشد الحقيقة، أو ربما الخلاص.

ـ *أنا محتاجة أفهم!*

قالتها بنبرة مُتعبة، ترتكز ببصرها عليه بتوسل امرأة مُنهكة، امرأة جاءها زوجها في لحظة صدق ليُخبرها أنها لم تكن تلك التي يبحث عنها، بعد طلاقهما بثلاث أشهر انتقل إلى الإسكندرية وتزوج شهد، عاش معها خمس سنوات حتى الكارثة.

تابعت وهي تسترجع البداية، تفاصيل دخول شهد منزلها لأول مرة، الخطاب الذي تركه «**علي**» يوصي فيه بعدم إخراجها من المشفى.. الخطاب ما زال معها، قرأته عشرات المرات بعد الحادثة والجملة تأبى أن تُفارق خيالها.

«**كلهن سيرحلن ضحايا**».

همست بنبرة ثخينة تمرر الوجع والخوف.

ـ *أحمد قتلها*؟

استدار حفظي نحوها بلا تعبير، وإن كتم غضبه.. فهي تسأل السؤال الوحيد الذي لا يعلم له إجابة.. السؤال الذي هدم المعبد ولم يترك منه سوى بقايا . تركها وانطلق بين أروقته، تقول الممرضات أن موعد جنونه قد حان، يحادث شخصاً ما وكأنه هو.. أو هي!

يُفند حواراً على صيغة هذيان ويتولى السؤال والجواب وحده.

أعجوبة

ـ *كذبت على أحمد ليه يا حفظي.. خدعته وقولت له إنك صديق والده*

ـ *علشان يوافق يستلم شهد*

سؤال يائس وجواب خالص..

حقيقة مجردة، والحقائق تحمل بساطة بديهية تحت رعاية المنطق. تفاصيل تمر بسلاسة وبصوت خشن ثابت في صيغة السؤال وهستيري في الجواب، نبرة متلاشية ونبرة حضور.

ـ *ليه؟*

ـ *علشان أفهم!*

ثم استدار مشاهداً نفسه في انعكاس مرآة قديمة، عيناه جاحظتان بحُمرة مُنهكة ووجهه نصفان متناقضان، نصف طبيب جامد العقل لا يبتغي سوى استقرار حالة الجسد ونصف باحث يائس بين العقل والنفس، إضاءة حمراء خافتة كانت مسلطة على النصف العاقل أم الآخر فبدا غارقاً في رمادية لا ترقى لظلام. اشتدت نبرته وهو يتشبث بنصفه كطبيب:

ـ *تقرير الطب الشرعي أكد إن عابد مقتلش نجوى، نجوى ذبحت نفسها بعد حالة يأس أتمكنت منها كمريضة «**وُهام**».*

وصرخ يقاطع نفسه:

ـ *صبرية وبدرية وماجدة مكانوش مرضى.*

أعجوبة

وصرخ أكثر:

ـ *عارف*

وبدا وكأنه تخلص من محاوره، أصبح يجيب نفسه دون سؤال ويمرر الحقائق التي طالما أراحت ضميره.

ـ *كذبت علشان شهد.. شهد كانت محتاجة تخرج للحياة*

ثم تابع بأنفاس بدت مستريحة بهذيان هازئ:

ـ *أحمد كان أكثر من مناسب!*

واستدرك مكملاً بعزيمة «**هاملتية**» التأثير، أكون أو لا أكون:

ـ *علشان أهزم الوهم بالمنطق*

وكانت قبضته مرتفعة.. متصلبة.. مضمومة على لاشيء.

ولذوعة من صوت تمر، نبرة هاربة من جدار اللاوعي تجر في أذيالها الموت:

ـ *ومنطقك انتصر يا دكتور!*

واستدار فرأى شهد، نفس العينين والشحوب والملامح المرتجفة ولكن ليس كما زارت مكتبه أول مرة، كانت ترتدي ثوباً أبيض مزركش بالدماء وفوق عنقها نصف نحر.

أعجوبة

وانفجرت ضحكة هستيرية ضجت بها الجدران، ضحك حتى تضخما فكاه بجنون وتراقصت العبرات فوق جفونه لأول مرة فظن المارة بالأروقة المظلمة أن إبليس قد عاد، وتلك هي ضجة رنته بعدما خدع آدم من جديد.

أكبر وهم في التاريخ.. إنسان ظن أنه يعرف كل شيء.

صاحبة الرنّان.

٢٠١٧/١١/٢٠

مروة جمال

أعجوبة

صاحبة الرنان

لم يكن يتصور أن محادثة هاتفية دون موعد ستقلب حياته رأسا على عقب.. تنبش تفاصيل ماض لم يكن يعلم بوجوده حتى تلك اللحظة وتفتح أوراق حكاية معتقة بعبق الوهم والزمن.

هاتف موضوع باهتمام في درج خزانته الأول ونغمة توقفت عن الرنين منذ ثلاثة أشهر

والمحادثة مع طبيب هادىء النبرة والبداية واجب عزاء نحو أبيه أما النهاية..

- منتظر حضرتك النهاردة الساعة ٧.. مستشفى الوادي للأمراض النفسية!

Cover by #ahz_art

أعجوبة